في أصول الحكم عند ابن ظفر العربي الصقلي السابق على ميكافللي الإيطالي

ITALY

Rome

Adriatic Sea

Tyrrhenian Sea

Sicily

Mediterranean Sea

دكتور

عادل فتحي ثابت

قسم العلوم السياسية

كلية التجارة - جامعة الإسكندرية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م



الناشر

دار الجامعة الجديدة

٣٨ ش سوتير - الأزاريطة

ت: ٤٨٢٨٠٩٩ - إسكندرية

* تقديم:-

هذا البحث هو محاولة من جانب الباحث للكشف عن سبق "ابن ظفـــر" (١١٧٠م) العربى الصقلى "لمكيافللى" الإيطالى (١٥٢٧م) فى تقديمـــه للفكـــر الإنسانى وللمعرفة السياسية "فن السياسة : Art Politique". "فابن ظفر" العربى يعد وبحق – كما سيأتى تفصيل ذلك فى حينه – مؤسس "فن السياسة" بمدلولــه المعاصر، وذلك على عكس مايدعيه الغرب المعاصر من أن "مكيـــافللى" هـــو مؤسس "فن السياسة" فى كتابه "الأمير". وتجدر الإشارة هنـــا إلى أن "جيتـــانو موسكا : Gaetano Mosca"[1] قد ذكر فى مؤلفـــه: "Storia delle dottrine politiche"[2] : أنه قد عثر على مخطوطة عربية بعنوان "ســـلوان المطـــاع"[3] لصاحبها "ابن ظفر" العربى الصقلى، وهى سابقة بحوالى أربعة قرون على كتـــاب "الأمير" "لمكيافللى"، وأن صاحب هذه المخطوطة قد تصدى وبجـــدارة "لفـــن السياسة"، حيث قدم قواعد للأمير يجب أن يتبعها فى الحفاظ على إمارتـــه، وأن الأمير الناجح – عنده – هو الذى يملك من أدوات الحيلة ماتجعله الأكثر قوة بين نظرائه، ويعرف كيف يتعامل مع أفراد إمارته، وذكر "موسكا" أن "ابن ظفـــر"

---

[1] وهو من مواليد "بالرمو" بصقلية سنة ١٨٥٨م. انظر فى هذا الشأن تصدير كتابه:-

- The ruling class, translated by Hannah D. Kalhn, New York, 1965.

[2] والنسخة التى بين يدى الباحث هى النسخة الفرنسية، انظر :-

- G. Mosca, Histoire des doctrines politiques depuis l'antiquite' jusqu 'a nos jours. Preface et traduction de Gaston Bouthoul, Paris, Payot, 1936, P. 26 et 27.

[3] ولقد أشار "موسكا" فى مؤلفه المتقدم إلى الترجمة الإيطالية لهذه المخطوطه بواسطة ميخـــائيل عمـــارى (وهو من مواليد بالرمو بصقلية كذلك، سنة ١٧٠٦) انظر:

- Solwan el mota, di Ibn Zafer, versione Italiano di Michele Amari, Firenze, 1851.

سابق على "مكيافللى" فى هذا الشأن، إلى جانب سبقه له فى الإشارة الى مفهوم القوة فى الدراسات السياسية. بل إن "ابن ظفر" - وعلى حد تعبير "موسكا" - قد فاق "ماكيافللى" فى تصوير الحيل التى يجب أن يسلكها الأمير ضارباً مثالاً عما قاله "ابن ظفر" عن الكذب، وهو يحذر الأمير منه قائلاً (كما سيأتى فى حينه): "الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغى (للأمير) أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح كالكذب فى كيد الأعداء وفى تأليف البعداء...".

موضوع البحث :-

ويتحدد موضوع البحث فى تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع فى عدوان الأتباع" "لابن ظفر" ، وكتاب "الأمير" (بصفة خاصة وعلى سبيل الاستشهاد) "لمكيافللى" من مصادرهما الأصلية، مع ربط ذلك كله بالظروف التاريخية التى عاصرها كل من "ابن ظفر" و "مكيافللى"، وذلك تمهيداً لإجراء مقابلة بينهما لمعرفة من له السبق والأصالة فى تصوير "فن السياسة" على مستوى الفكر الإنسانى.

هدف البحث :-

ويهدف الباحث من وراء هذا البحث إلى إظهار أن مايدعيه الغرب المعاصر من كون "مكيافللى" الإيطالى هو مؤسس "فن السياسة" هو ادعاء بعيد عن الصحة، حيث يعد "ابن ظفر- كما سيأتى فى حينه - " مؤسس "فن السياسة" على مستوى الفكر الإنسانى قاطبة وبجدارة، وهو كذلك أول من أشار إلى مفهوم "القوة" فى الدراسات السياسية، وله السبق تاريخياً على "مكيافللى" فى هذا كله.

منهج البحث :-

ويتحدد منهج البحث على مقتضى طبيعة الموضوع وهدفه، وطبيعة موضوع البحث تقتضى تحليل نصوص كتابى "ابن ظفر" و "مكيافللى" المشار

إليهما من قبل، والمنهج الذى يستقيم هنا وذلك التحليل هو المنهج "الاستنباطى"، كما ستمثل المقابلة أداة فعالة فى تحليل الموضوع، وفى الوصول إلى الهدف من البحث.

خطة البحث :-

وحتى يتسنى للباحث معالجة بحثه على ذلك النحو، ولكى يتم الوصول إلى الهدف منه، سيتم تناول موضوع البحث من ثنايا النقاط التالية:-

- **أولاً: مقدمة** : يعرف فيها الباحث بعبارة "فن السياسة" فى مدلولها المعاصر.

- **ثانياً : فن السياسة عند "ابن ظفر"** : وفى هذا الصدد يعرف الباحث بداية بالظروف الشخصية والتاريخية التى أحاطت "بابن ظفر" وقت تأليفه كتاب "سلوان المطاع"، ولكى ينتقل الباحث بعد ذلك إلى تحليل نصوص هذا الكتاب، لمعرفة كيف قدم "ابن ظفر" مجموعة ملاحظات للواقع وأعقبها بمجموعة قواعد عمل بدت له قادرة على تحقيق أكبر قدر من الأهداف، أو بعبارة أخرى: ماذا قدم "ابن ظفر" لفن السياسة؟ كما يشير الباحث عقب ذلك إلى موقع "ابن ظفر" من المفكرين الإسلاميين السياسيين.

- **ثالثاً : فن السياسة عند "مكيافللى"** : وفى هذا الشأن يعرف الباحث كذلك بالظروف الشخصية والتاريخية التى أحاطت "بمكيافللى" وقت تأليفه كتاب "الأمير" (بصفة خاصة مع الإشارة إلى مطارحاته)، ثم ينتقل إلى تحليل نصوص هذا الكتاب للوقوف على ماقدمه "مكيافللى" بالتحديد "لفن السياسة" وكل ذلك على سبيل الاستشهاد لا التفصيل (كما تقدم).

- **رابعاً : اجراء مقابلة بين كل من "ابن ظفر"، و "مكيافللى"** فيما قدماه بصدد فن السياسة، من ثنايا تناول نقاط التشابه والتباين فيما بينهما، للوصول إلى الهدف من البحث.

- **خاتمة .**

التحليل :

♦ أولاً : مقدمة فى التعريف بعبارة "فن السياسة" :-

تشير عبارة "فن السياسة: Art Politique" إلى اختيار الوسائل (أو إبداعها) الأكثر استجابة لتحقيق الأهداف المحددة مقدماً. فالمعنيون بفن السياسة لايعنون بتفسير الواقع السياسى أو تحليله بقدر اهتمامهم بتصوير قواعد العمل الواجب الالتزام بها انطلاقاً من ذلك الواقع، وهم لذلك واقعيون. ومن ثم فإن جوهر اهتمام المعنيين بفن السياسة يتحدد فى السعى لتقديم أصول لفن الحكم تكفل له أقصى درجات الفاعلية، وهم لايرون فى العلاقات السياسية (فى الداخل والخارج) أكثر من علاقات بين طرفى قوى فعلية هما : الحاكمون والمحكومون فى الداخل، وعلاقات بين عدة قوى فى الخارج، حيث يربطون عالم السياسة كله بحقيقة هى القوة وبالقوة الفعلية وحدها، فهى لديهم صلب ذلك العالم ونقطة الانطلاق لكل دراساته[1].

ومما تقدم يعرف "فن السياسة" – فى مدلوله المعاصر – بأنه مجموعة قواعد العمل التى لو اتبعت لجاءت سياسات الحكومات (فى الداخل والخارج) أكثرقوة وفاعلية. وهذه القواعد تصور من الواقع عن طريق الممارسة، وعن طريق الخطأ والصواب، ولو التزمتها الحكومات لجاءت سياساتها أكثر اتقاناً، فهى إذن قواعد اتقان السياسات . وتبعاً لذلك فإن المعنيين بفن أصول الحكم يعنون بمدى فاعلية الحكم ذاته أو فى معنى آخر بمدى فاعلية وسائله بالنسبة لأهدافه[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "أفلاطون" (فى القرن الرابع قبل الميلاد) قد فطن فى كتابه "السياسة" إلى أن للسياسة فناً، فالسياسة من حيث هى فن تعنى – عنده – فن توجيه الجماعات عن غير طريق الإكراه المادى، أو بعبارة أخرى حكم

---

[1] انظر فى هذا الشأن : د. محمد طه بدوى، النظرية السياسية – النظرية العامة للمعرفة السياسية، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٦، ص ١٣٥، ص١٣٦، ص٢٥١، ص٢٥٢.

[2] المرجع السابق ، ص١٣٦، ص٢٥١.

الناس برضاهم، ذلك أن الحكم بالاكراه (حكم الطاغية) - عنده - ليس سياسة[1] . من هنا فإن تعريف أفلاطون للسياسة كفن لايلتقى ومدلول "فن السياسة" المعاصر، وتبعاً لذلك لايصح وصف "أفلاطون" بأنه مؤسس "فن السياسة".

♦ ثانياً : "فن السياسة" عند "ابن ظفر" العربى الصقلى:-

وإذ عرف الباحث بعبارة "فن السياسة" - فى مدلولها المعاصر، ينتقل هنا إلى التعريف "بابن ظفر" وبظروفه الشخصية وبالظروف التاريخية التى كانت من وراء كتابته لمؤلفه "سلوان المطاع"، تمهيدا للانتقال إلى تحليل نصوص مؤلفه هذا، للوقوف على ماقدمه لفن السياسة.

- التعريف "بابن ظفر" :

هو : أبو عبد الله (وأبو هاشم) محمد بن أبي محمد بن ظَفَر[2] الصقلى المنعوت بحجّة الإسلام برهان الدين، ولد بصقلية سنة ٤٩٧ هـ، وقدم مصر فى صباه، ورحل إلى إفريقية، وقصد المهدية (بتونس) وأقام بها مدة إلى أن استولى عليها النورمانديون سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) فانتقل إلى صقلية، لكنه لم يستقر بها فعاد إلى مصر، ورحل منها إلى حلب (بسوريا)، وفيها أقام بمدرسة "ابن عصرون" إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة ونهبت معظم كتبه فيما نهب، وخرج من حلب إلى حماة (بسوريا أيضاً) وفيها صادف قبولاً فسكن بها، وأُجرى له راتب من ديوانها[3]، ولكنه راتب دون الكفاف، وتوفى بها سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م).

---

[1] نفس المرجع السابق ، ص٢٧١.

[2] والظَّفَرُ (بالفتح) هو المصدر من ظَفِرَ بالشئ يَظْفَر ظَفَراً إذا فاز به، فالظفر هو الفوز بالمطلوب، ويقال رجل مُظَفَّرُ: أى لايحاول أمراً إلا فاز به. انظر : لسان العرب لابن منظور، دار احياء التراث العربى ببيروت، جـ٢، ص٢٥٤، ص٢٥٥.

[3] وذلك فى عصر نور الدين محمود، فبعد وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) ، انقسمت أملاكه بين أبنائه، فتولى نور الدين محمود مدينة "حلب"، وتولى سيف الدين غازى الموصل وبلاد الجزيرة، وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م). انظر فى هذا الشأن: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، (تاريخ الدولة الأتابكية) من ص ١٥٧ إلى ص١٥٩.

ولقد ابتلى "ابن ظفر" فى حياته فصبر وعاش فقيراً، ومات فقيراً[1]، ولكنه وهو الحجة والمفسر واللغوى والنحوى والأديب والشاعر- قد ترك كنوزاً عرفت قيمتها بعد وفاته بلغت أكثر من ثلاثين مؤلفاً، منها كتاب "ينبوع الحياة" وهو فى تفسير القرآن الكريم (فى اثنى عشر مجلداً: بعضها موجود فى كل من برلين وباريس وتركيا والقاهرة، وكتاب "خير البِشر بخير البَشر" وهو كتاب يضم البشريات التى وردت فى الكتب السماوية السابقة والتى تحدث فيها العلماء والأحبار والكهان عن النبى (ص)، وكتاب "المُسنى (أى المسهل) فى الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس"، وكتاب الاشتراك فى اللغوى والاستنباط المعنوى، وكتاب القواعد والبيان فى النحو، وكتاب المطول فى شرح مقامات الحريرى، وكتب فى النصائح والحكمة : ككتاب "أنباء نجباء الابناء" الذى تحدث فيه عن طفولة الأعلام الذين منحوا مؤهلات النجابة والسيادة من صغرهم وعلى رأسهم محمد (ص)، إلى جانب عشرة من الصحابة (كأبى بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، والحسن والحسين ولدا علىّ، وعمرو بن

---

[1] ذكر الصفدى والذهبى وابن خلكان أنه لم يزل يكابد الفقر إلى أن مات، وزوج ابنته من الضرورة بغير كفء فسافر (بها الزوج) و باعها فى البلاد، كما ذكروا كذلك أنه كان قصير القامة ذميم الخلقة إلا أنه صبيح الوجه (وستأتى الإشارة إلى مراجع الصفدى والذهبى وابن خلكان فى نهاية الحديث عن سيرة "ابن ظفر).

العاص..) وعدد من التابعين، وعدد من ملوك العرب فى الجاهلية وملوك الفرس حين كانوا أطفالاً. ومن كتب النصائح كذلك: كتاب "سلوان المطاوع"[(١)] .

- التعريف بكتاب "سلوان المطاع" :

وهو كتاب فى نصح الملوك والأمراء، معنون بـ "سلوان المُطاع فى عدوان الأتباع"، ومعروف أيضاً باسم "السلوانات فى مسامرة الخلفاء والسادات"، والكتاب فى جملته مجموعة نصائح (قواعد)، وعلى نحو تسمية "ابن ظفر": لها "سلوانات"[(٢)]، للمُطاع (أى للأمير) لكى تكون مرشداً له عند الشدائد (فى حالة تعرضه فى الداخل لعدوان الأتباع - أى المحكومين، أو لعدوان من الخارج من جانب الملوك والأمراء الآخرين). ولقد ألفه "ابن ظفر" على صورتين : **الأولى** سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) فى شكل رسومات مصحوبة بتعليقات ونصائح

---

(١) راجع بشأن ماتقدم من سيرة "ابن ظفر" وبصدد مؤلفاته مايلى: كتاب الوافى بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، طبعة سنة ١٩٦٢، جـ٢، ص١٤١، و ص١٤٢. وكتاب وفيات الأعيان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، طبعة دار الثقافة ببيروت، جـ٤، من ص٣٩٥ إلى ص٣٩٧. وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان (النسخة العربية)، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧، جـ٢ ، من ص ١٦٠ إلى ص ١٦٢. ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مطبعة الترقى بدمشق، ١٩٦٠، جـ١٠، ص٢٤١، ص٢٤٢. وكتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، مطبعة الحلبى، جـ١، ص١٤٢، وص ١٤٣. وكتاب سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان الذهبى، مؤسسة الرسالة ببيروت ، ١٩٨٥، جـ ٢٠، ص ٥٢٢، وص٥٢٣. ومقدمة كتاب : أنباء نجباء الابناء "لابن ظفر" تحقيق إبراهيم يونس، دار الصحوة بالقاهرة، ١٩٩١، من ص ١٢ إلى ص١٥. والمكتبة العربية الصقلية للمستشرق ميخائيل عمارى، طبعة مكتبة المثنى ببغداد (إعادة لطبعة ليبسك ١٨٥٧م)، من ص ٦٦٥ إلى ص٦٦٧. وراجع بشأن مؤلفات "ابن ظفر" (اكثر من ثلاثين مؤلفاً) بصفة خاصة:-

- Solwan el mota,'di Ibn Zafer, versione Italiana di Michele Amari, OR. at., interoduzione : p p. XXXIII - XXXVIII.

(٢) و"السُّلْوان" من سلا: سلاه وسلا عنه، وسلّاه من همٍّ تسليةً وأسلاه - أى كشف عنه، والسلوانة خرزة تقول العرب عنها إنها تسحق ويشرب ماؤها فيورث شاربه سلوة. أنظر لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ٦، ص٣٥١، ص٣٥٢. وتجدر الاشارة هنا الى أن لفظة "salve" الإنجليزية مأخوذة عن لفظة "سلا" العربية، وبنفس المعنى، حيث تعنى كل ما يلطف أو يسكن أو ينقذ من الغرق.

مختصرة[1]، والثانية سنة ٥٥٤هـ، (١١٥٩م) وهى التى ألفها لأبى عبد الله بن أبى القاسم على القرشى، قائد صقلية، وهى النسخة التى توسع فيها "ابن ظفر" فى نصائحه مدللاً عليها بأحداث تاريخية كثيرة، إلى جانب التدليل على صحة نصائحه تلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، بالإضافة إلى منثور الحكم، والشعر، كما ذيل تلك النصائح فى بعض الأحيان بقصص عن الحيوانات وذلك حينما تحدث عن الأخلاق الذميمة حيث أعطى عليها أمثلة من سلوك الحيوانات من باب التورية، كما صاحب تلك النصائح برسومات أيضاً على نحو ما فعل فى النسخة (الصورة) الأولى من كتابه[2]

والكتاب قصره "ابن ظفر" بمقدمة أعلن فيها أن هذا الكتاب هدية منه إلى قائد صقلية أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم على القرشى، حيث قال: "ولما

---

[1] وهذه النسخة موجودة بالمتحف البريطانى ١٥٣٠ : ١ ، جوتا ٢٦٨٨، wolfenb. pet.Ros (بطرسبرج خامس) ١٢١،٤٣ . والنسخة التى بين يدى الباحث منها هى النسخة المترجمة إلى الفرنسية انظر: - Arie', Rachel, Miniatures hispono - musulmanes, recherches sur un manuscript arabe illustre de L'Escurial, Leiden, E.J. Brill, 1969.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه النسخة (الصورة الأولى من كتاب السلوان) قد جاءت على نمط كتاب كليلة ودمنة.

[2] وهذه المخطوطة طبعت بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ، وبتونس سنة ١٢٧٩هـ، ببيروت سنة ١٣٠٠هـ، وترجمها إلى التركية قرة خليل أفندى زادة وطبعت هذه الترجمة فى إستانبول سنة ١٢٨٥هـ، والمخطوطة موجودة فى : برلين ٨٧٥٠ - ٨٧٥١، وليبزج أول ٣٩٧، ٣٩٧أ، وليدن ٥٣٧-٥٤٠، وباريس أول ٦٥١٢، ٦٥٦٧، والمتحف البريطانى ثان ١١٦٠، والإسكوريال ثان ٥٢٨ (مصورة)، والجزائر أول ١٨٠٤، وتونس - الزيتونة ٢٥١/٣ : ١٧٢، ودمشق العمومية ٨٦ : ٢٨، والموصل ١٦٥، ٤، ٢١ وطهران ٢٨٦/٢، والقاهرة ثان ١٨٨/٣. كما ترجم الكتاب إلى الإيطالية بواسطة ميخائيل عمارى-كما تقدم، والنسخة الإيطالية التى بين يدى الباحث هى:-

- Solwan el mota, ossiano conforti politici, di Ibn zafer, (arabo siciliano del XII secolo) versione Italiana di Michele Amori, op.cit.

كما نقلت هذه الترجمه (الإيطالية) لكتاب "ابن ظفر" إلى الإنجليزية، والنسخة الإنجليزية التى بين يدى الباحث هى:-

- Solwan or waiters of comfort by Ibn Zafer, (a sicilian arab of the twelpth century) from the original manuscript by Michele Amari and Rendered in English (in two volumes), London, 1852.

، النسخة العربية التى بين يدى الباحث (مصورة) هى المخطوطة التى طبعت بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ، ، تلك النسخة التى حررها وراجعها على النسخ الخطية وقدم لها : أبو نملة أحمد بن عبد المجيد، طبعة دار ... الثقافة بالقاهرة، ١٩٧٨.

كانت الهدايا تزرع الحب وتضاعفه.. أحببت أن أهدى له هدية فائقة.. فلم أجد .. إلا العلم الذى شغفه حبا، والحكمة التى لم يزل بها صبا.."[1] ، والكتاب يحوى خمس سلوانات: الأولى فى التفويض ونتائجه، والثانية فى التأسى وفوائده، والثالثة فى الصبر وعوائده، والرابعة فى الرضا وفضائله، والخامسة فى الزهد وعواقبه، وكل سلوانة من هذه السلوانات الخمس تتضمن عدة نصائح كذلك للأمير فى سياساته سواء الداخلية أو الخارجية. والكتاب فى جملته مجموعة قواعد فى فن أصول الحكم.

– التعريف بالقائد الذى أهدى إليه "ابن ظفر" كتابه :

وهو (كما تقدم) أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم على القرشى، والمعروف "بابن حمود"، وكذلك "بابن حجر"، وهو زعيم المسلمين بجزيرة صقلية آنذاك ، وكان يلقب بقائد صقلية (أو القائد)، وهو من أهل بيت بالجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن كابر، وكان من الأغنياء ذوى الإقطاعيات الواسعة، وكان له ولاخوته وأهل بيته فى "بلرم" (بالرمو) قصور مشيدة أنيقة، وشهد له بالعمل الصالح من افتكاك الأسارى وبث الصدقات فى الغرباء، حتى كان المسلمون منحرفين عن ملك صقلية آنذاك "غليام الثانى" بتأثير نفوذ "ابن حمود" الذى كان يوزع الأموال على الناس لعله يميلهم وخاصة عن القائد المنافس له فى زعامة المسلمين بالجزيرة وهو القائد "صديق" من أغنياء المسلمين كذلك. ولقد كان "ابن حمود"، رجلاً طموحاً يريد الزعامة، وكان ذا أطماع بعيدة، يحلم بعودة جزيرة صقلية إلى حوزة المسلمين، ويعمل لذلك، حتى أنه اتصل بسلطان الموحدين وأرسل إليه كتاباً يحثه فيه على استرداد الجزيرة[2] ، ولعل هذا التدبير قد استغله

---

[1] المرجع السابق، ص١٦.

[2] وذلك بعد أن استرد الموحدون (حكام المغرب) سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) المهدية من أيدى النورمان الذين احتلوها سنة ٥٤٣هـ ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس – فبعد أن هزم الموحدون (فى عهد سلطانهم عبد المؤمن بن على : ٥٢٤ – ٥٥٨هـ، ١١٣٠-١١٦٣م) النورمان اجلوهم عن الساحل الافريقى. انظر فى هذا الشأن : د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨، جـ ٤، من ص ٢١٩ إلى ص ٢٢٢. و د. أحمد شلبى، التاريخ الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦، من ص ١٨٤ إلى ص ١٨٩.

أعداؤه فوشوا به إلى ملك صقلية "غليام الثانى"، فغضب عليه وصادر أمواله، وتخلى "ابن حمود" تبعاً لذلك عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه، حتى بقى دون مال، وفيما بعد عفا عنه "غليام الثانى"، وأخذ ينفذه فى بعض أشغاله السلطانية نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله، وقد كان "ابن حمود" صاحب ديوان فى "بلرم" وصاحب قلم يدّبر الأقاليم[1] .

- الظروف التاريخية التى عاصرها "ابن ظفر":

ويعرض الباحث هنا للظروف التاريخية لجزيرة صقلية، التى ولد بها "ابن ظفر" وعاد إليها وقت كتابته مؤلفه "سلوان المطاع" فى صورته الأخيرة. وبادئ ذى بدء يشير الباحث إلى أن جزيرة "صقلية" من جزر البحر الأبيض المتوسط، وتتمتع بموقع جغرافى هام بين ساحل إيطاليا الجنوبى الذى لا يفصله عنها سوى مضيق "مسينا" شمالاً، وبين الساحل التونسى القريب منها جنوباً، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغزو الحقيقى لجزيرة صقلية من جانب المسلمين قد بدأ فى عهد الخليفة العباسى "المأمون بن هارون الرشيد"، وقام به الأغالبة (حكام أفريقيا من قبل الخلافة العباسية) فى وقت كانت فيه صقلية تحت سيادة الإمبراطورية البيزنطية، ولقد بدأ الغزو سنة ٢١٢ هـ[2] إلى أن سقطت الجزيرة كلها سنة ٢٩١هـ (٩٠٢م)[3]، (كما استولى الأغالبة كذلك على جزيرة "مالطا" سنة ٨٦٩م) ثم عبروا مضيق "مسينا" وغزوا رقلّورية (كلابريا) فى جنوب إيطاليا،

---

[1] والأقاليم اصطلاح كان جارياً آنذاك فى صقلية على الأقسام العسكرية. راجع بشأن ماجاء عن القائد الصقلى "ابن حمود" : د. إحسان عباس، العرب فى صقلية ، دار الثقافة ببيروت، ١٩٧٥، ص١٥١، وص١٥٢، ومن ص٢٨٩، إلى ص ٢٩١. وكذلك : رحلة "ابن جبير" (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى) دار بيروت ودار صادر (بيروت)، ١٩٦٤، ص٣١٤.

[2] فى عهد زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب، وبقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات، انظر فى هذا الصدد : د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، ١٩٦٦، ص٤١٧.

[3] ولقد استغرق الغزو مايقرب من الثمانين سنة نتيجة لمناعة الجزيرة ووعورة مسالكها، ولأنه كان من [illegible]ها الإمبراطورية البيزنطية تمدها بالمال والرجال. انظر فى هذا الشأن: أحمد مختار العبادى، فى التاريخ [illegible]اسى والفاطمى ، مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ، ١٩٨٢، ص٣٣٦.

وأصبحت "صقلية" آنذاك نقطة ارتكاز للمسلمين فى شن حملاتهم على إيطاليا حتى هددوا روما نفسها بعد أن نزلت فيالقهم عند مرفئها البحرى "اوستيا"[1].

هذا ولما قضى الفاطميون على حكم الأغالبة فى المغرب سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م)، دخلت صقلية فى فلك الحكم الفاطمى، إلا أن تبعية صقلية للحكم الفاطمى كانت اسمية وخاصة فى عهد أسرة الكلبيين[2] الذين حكموا "صقلية" حكماً ذاتياً وراثياً أكثر من مائة عام (٣٣٦-٤٤٤هـ، ٩٤٨-١٠٥٢م). ولقد انقرض حكم الكلبيين نتيجة انقطاع الإمدادات عنهم سواء من مصر والشام أو المغرب والأندلس تبعاً لانشغال كل جهة بما يخصها من الفتن، ودبت المنازعات الداخلية فى الجزيرة بين عناصر المسلمين من الأسبان والأفارقة، وبين القبائل العربية (من عدنانيين وقحطانيين)، وبين الفرق الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة وخوراج (أباضية وراسبية)،وقامت فى صقلية فترة شبيهة بفترة ملوك الطوائف فى الأندلس، حيث تمزقت صقلية إلى عديد من إمارات إسلامية متقاتلة، ولما انهزم أحد أمرائها ويدعى "ابن الثمنة" أمام نظيره "ابن الحواس" استنجد الأول بالنورمان سنة ٤٤٤ هـ، حتى انتهى الأمر باحتلال النورمان لصقلية سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٧م)[3].

- صقلية فى العهد النورمانى :

وهكذا بعد أن ظلت صقلية طوال المائة والتسع والثمانين سنة التالية لسنة ٢٩١هـ (٩٠٢م) تحت إمرة حكام المسلمين الذين جعلوها قطعة من العالم

---

(١) ع فيما تقدم: أحمد توفيق المدنى، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، مكتبة الاستقامة ... ١٣٦٥هـ، من ص ٥٠ إلى ص ١١٢. ود. العبادى، المرجع السابق، ص٣٣٥، ص٣٣٦، فيليب ... حتى ، تاريخ العرب، دار الكشاف بلبنان، ١٩٦٥، جـ٢، من ص٧١٥ إلى ص٧١٧.

(٢) ... هذا الحكم هو الحسن بن على بن أبى الحسن الكلبى الذى ولى من قبل الخليفة الفاطمى ... سنة ٣٣٦هـ ، انظر المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٣) ... العبادى ، المرجع السابق، ص٣٣٦، ص٢٢٧. و د. مارتينو ماريو مورينو، المسلمون فى صقلية، ... ١٩٥٧، ص١٦، ص١٧.

العربى الإسلامى، نجح النورمان (النورمانديون) حكـــام جنـــوب إيطاليـــا فى الاستيلاء على صقلية من الشمال على يد الكونت روجار الأول حاكم قلوريـــة (كلابريا) سنة ٤٨٥هـــ (١٠٩٢م)[١]، وحينما دخل النورمان صقلية تركـــوا للمسلمين منها أجزاءً يعيشون فيها. ورغم أن روجار الأول كان نصرانياً إلا أنـه اعتمد على المسلمين فى حشد أكثرية المشاة فى جيشه، واستعان فى إدارة شـئون الحكم بالموظفين المسلمين، بل إنه أسند بعض الوظائف العليـــا إلى المســـلمين، والسبب من وراء ذلك أن النورمان كانوا أقلية ضئيلة فى الجزيرة، ولا يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم على نواحى الحياة بالجزيرة بالقوة، (كما لم تكن لهم حضارة تقف كند للحضارة الإسلامية القائمة آنذاك)، وهذا ما جعل ملوك النورمـــان المعاصرين للحروب الصليبية لايشتركون فيها، كما أنهم كانوا فى نقطة المركز فى دائرة الأعداء، فهم فى خطر من تهديد الإمبراطور الجرمانى، وأحياناً فى عداء مـع البابا، وعلى مقربة منهم فى الساحل الأفريقى أمراء مسلمون يضمـــرون لهـم العداء، ومن هنا وازن النورمان بين المصـــالح والفئـــات المتضاربـــة وخضعـــوا لاعتبارات الموقع الجغرافى[٢].

هذا ورغم أن روجار الأول قد اســـتعان فى عـــهده (١٠٧٠-١١٠١م) بالمسلمين فى إدارة مملكته إلا أنه شجع سياسة تنصير المسلمين، وفى عهد "غليـام الأول" (١١٥٤-١١٦٦م) قام المسيحيون (وخاصة اللمبارديون) بقتل وذبـــح المسلمين فى شوارع بلرم، وفى أيام حكم "غليـــام الثـــانى" (١١٦٦-١١٨٩م) والذى كان "ابن حمود" فى عهده قائداً لصقلية اشتدت دعوة تنصير المســـلمين

---

[١] فملوك النورمان كانوا يحكمون جنوب إيطاليا إلى جانب صقلية مما تسنى لمملكتهم أن تكون جســـراً يعبر عليه شتى العناصر الثقافية الإسلامية إلى شبة الجزيرة الإيطالية وأوربا الوسطى. انظر: فيليـــب حـــتى، المرجع السابق، ص٧٢٦.

[٢] انظر : د. إحسان عباس، معجم العلماء والشعراء الصقليين، دار الغرب الإسلامى بيـــروت، ١٩٩٤، ص١٣. ولنفس المؤلف: العرب فى صقلية، مرجع سابق، ص١٣٧. وفيليب حتى، المرجع الســـابق، مـــن ص٧١٨ إلى ص٧٢١.

حتى وصل الأمر بالأبناء أن اتخذوا من مفارقة الدين سلاحاً يشهرونه فى وجه
[illegible]ابائهم إذا ما أغضبوهم، وبعد "غليام الثانى" قامت معارك بين المسلمين والمسيحيين، وهاجر كثير من المسلمين إلى إفريقيه. ولقد أخذ الوجود الإسلامى يتضاءل فى صقلية وخاصة من القرن الثالث عشر الميلادى (فى عهد الإمبراطورية الجرمانية) مع إمعان الرهبان اللاتينيين فى تنصير المسلمين طوعاً أو كرهاً حتى أن الإسلام قد اضمحل تماماً من أرض الجزيرة خلال ذلك القرن[١].

وجملة القول هنا بصدد الظروف التاريخية التى عاصرها "ابن ظفر" وأحاطت به وقت تأليفه كتاب "سلوان المطاع": أن مولده كان بصقلية فى عهد حكم النورمان (وبالتحديد فى عهد روجار الأول)، ثم غادر "ابن ظفر" صقلية وعاد إليها فى عهد "غليام الأول" حيث ألف كتابه "سلوان المطاع" وأهداه إلى القائد القرشى "ابن حمود" سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م)، وهى نفس السنة التى استعاد فيها الموحدون (كما تقدم) - حكام المغرب العربى فى الفترة من سنة ٥٢٤هـ الى سنة ٦٦٨هـ (١١٣٠-١٢٦٩م). المهدية من أيدى النورمان (الذين استولوا عليها سنة ٥٤٣هـ-١١٤٨م)، وذلك أملاً فى عودة "صقلية" هى الأخرى إلى حوزة المسلمين، ثم غادر "ابن ظفر" صقلية إلى مصر ورحل منها إلى سوريا وتوفى بحماة سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م).

- تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر":

ويشير الباحث منذ البداية هنا إلى أن "ابن ظفر" قد أفرد هذا الكتاب من [illegible]ابدايته إلى نهايته لوضع أصول لفن الحكم، حيث يقول فى مقدمة كتابه : "وهو [illegible]كتاب .. عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك (أى أعيان الملوك وأكابرهم) ببضاعتها (يعنى بمعرفتها وبقواعد ممارستها)، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسعت بالتعبير بألفاظى عنها، والتحبير[٢] بعلمى لها، والتفنن بقوى

[illegible] التفصيل فى هذا الشأن انظر: أحمد توفيق المدنى، المرجع السابق، من ص ١٩٠ إلى ص٢٠٧ [illegible] عباس، المرجع السابق، من ص١٤٨ إلى ص١٥٤.

[illegible] هو التحسين (الإجادة)، والحَبر هو العالم بتحبير الكلام والمعرفة وتحسينها - أى إجادتها من [illegible]. انظر: لسان العرب لابن منظور ، مرجع سابق، جـ٣، ص١٤، ص١٦.

فطنتى فيها، توسعاً لايحظره شرع ..."[1] . وتوضح هذه النصوص التى أوردها "ابن ظفر" فى مقدمة كتابه أنه وضع فى مؤلفه هذا قواعد للممارسة والحكم (استأثر بها خواص الحكام)، من ثنايا مجموعة ملاحظات للواقع السياسى (أمثلة استقرأها من التاريخ، كما أعلن "ابن ظفر" هنا أن هذه القواعد التى توسع فى عرضها والتى بدت له أنها قادرة على تحقيق سياسات للأمير أكثر قوة وفاعلية، لاتتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية[2] .

- القاعدة الأولى "التفويض" :

وتتمثل القاعدة الأولى فى فن أصول الحكم (وعلى نحو تسميته هو : السلْوانة الأولى) فى التفويض، ويعرفه "ابن ظفر" بأنه التسليم من جانب الأمير لأحكام القدر، حيث قال : "إن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الله"[3] ، ولكن التفويض فى هذا المعنى لايعنى -عنده- الاستسلام أو التواكل من جانب الأمير فى حالة وقوع الضرر، حيث ينتقد "ابن ظفر" الأمير المستسلم والمتواكل بقوله: "إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب، ومدبر مربوب (أى صار عبداً أو مملوكاً للموقف)، أن يتبلد رأيه فى بعض الخطوب، ويعمى عليه الصواب المطلوب، فإذا كان ذلك، فإن تدميره فى تدبيره، واغتياله فى احتياله (أى فى تحركه من موضع إلى آخر)، وهلكته فى حركته"[4]. وتبعاً لذلك نصح "ابن ظفر" الأمير فى حالة وقوع الضرر بأن يحسن التدبير والتصرف، وأن يُعمل

---

[1] انظر : سلوان المطاع فى عدوان الأتباع لابن ظفر، النسخة التى حررها وراجعها على النسخ الخطية وقدم لها أبو نملة أحمد بن عبد المجيد، مرجع سابق،ص١٦.

[2] لذلك يصنف الباحث (وكما سيأتى) "ابن ظفر" ضمن المفكرين الاسلاميين السياسيين الذين يمثلون أصالة الفكر السياسى الإسلامى الذين لم يتأثروا بالفكر اليونانى من ناحية، و لم يكتبوا كتباً مداراة للحكام من ناحية أخرى.

[3] المرجع السابق ، ص٢١.

[4] المرجع السابق، ص٢٢.

الحيلة ما استطاع حتى يحافظ على نفسه وعلى إمارته حيث قال: "وإذا كانت مغالبة القدر مستحيلة، فمن أعوان نفوذ الحيلة"[1].

هذا ولقد راح "ابن ظفر" يستقرئ التاريخ ويعطى مثالاً للأمير يوضح به كيف يكون حُسن التدبير وإعمال الحيلة والقوة معاً فى حالة وقوع الضرر، وليست القوة على إطلاقها، وهو مثال الخليفة الأموى "عبد الملك بن مروان" الذى تعرض لأضرار جمة فى ذات الوقت، حينما خرج إلى مكة لقتال "عبد الله بن الزبير" واستصحب "عمرو بن سعيد بن العاص" - الطامع فى الخلافة حتى يأمن غدره، ولما سار "عبد الملك" أياماً عن دمشق تمارض "عمرو بن سعيد" فاستأذن "عبد الملك" بالعودة إلى دمشق فأذن له، ولما دخل "عمرو" دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة"عبد الملك" ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه فاستولى "عمرو" بذلك على دمشق (عاصمة الخلافة الأموية) وحصن سورها وسد ثغورها، فبلغ ذلك "عبد الملك" وهو متوجه إلى

[1] المرجع السابق ، نفس الصفحة، ولفظة أعْوان جمع عون وهو الظهير على الأمر، كأن تقول: أعَنْتهُ إعانة واستعنته واستعنت به فأعانني، وتعني لفظة نفوذ: جواز الشئ، والنفذ: المخرج والمُخْلص، ومعنى العبارة بالإجمال: إذا كانت مغالبة القدر أمراً يستحيل على الأمير التصرف إزاءه فإن المخرج فى حالة وقوع الضرر يكون فى الاستعانة بالحيلة لا كأداة للاعتراض على القدر بل للمحافظة على النفس. انظر فى هذا الشأن : لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ٩ من ص٤٨٤ إلى ٤٨٦، جـ١٤ من ص٢٢٩ إلى ص٢٣١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظة "الحيلة" لاتعني كما يتبادر للذهن أنها "تنكب طرق الكذب والنفاق لخداع خصم ما"، بل على العكس من ذلك فكلمة "حيلة" فى معناها الدقيق تدل على "آلة" توفر الجهد والمشاق على الإنسان، وهذا يرتكز على قواعد علمية تكون بمتناول مخترع حاذق وعالم عامل، فالحيلة إذن هى أكثر الوسائل حذقاً ومهارة للوصول إلى الأهداف والغايات، والحيلة تبعاً لذلك هى الوسيلة الفضلى، فهى تحتوى على قدر أقل من الإكراه وعلى درجة ليست قليلة من الفاعلية. ومن هنا فإن أصحاب الحيلة ينظرون بازدراء إلى العنف وحمل السلاح وسله بمناسبة وبدون مناسبة، فإهراق الدماء أسهل الأمور لكن الحيلة تحتاج إلى مهارة خاصة كما فى بعض الفنون، وهى مضمونة الربح عادة. والحيلة فى عملية الحكم والسياسة ليست مجرد لعبة ذهنية مجرّدة، بل هى عمل حاذق دقيق ومرهف، راجع فى هذا الشأن:

- The book of arabic wisdom and guile, translated by Rener Khawam, London, 1980, P.3.

قتال "ابن زبير"، كما بلغه أن والى حمص "النعمان بن بشير"، وأمير قنسرين "زفر بن الحارث"، وأمير فلسطين "نايل بن قيس" قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس "لابن زبير"، وأصبح "عبد الملك" فى حال اضطراب، كالبحر فى حال هياجه، لكنه فى الموقف الذى بات فيه يفقد ملكه لم يستخدم القوة المجردة، حيث استخدم الحيلة جنباً إلى جنب مع القوة، فتراجع عن قتال "ابن الزبير" على أساس أنه لم يعطه طاعة ولاوثب على ملكه، ولو قاتله لكان فى صُورة ظالم، وأصر على قتال "عمرو بن سعيد" الذى نكث ببيعته وأفسد رعيته وحملهم على الغدر به، لأنه فى هذه الحالة سيقاتل وهو فى صورة المظلوم فيكسب تبعاً لذلك عطف ودعم الرعية، ولقد أفلح "عبد الملك" واستعاد عاصمة ملكة من "عمرو ابن سعيد"، ثم تفرغ بعد ذلك لقتال "ابن الزبير" وخصومه، وتغلب عليهم، ونجح فى الحفاظ على ملكه[1] .

كما لم يترك "ابن ظفر" تلك الحادثة التاريخية إلا واستخلص منها عدة نصائح للأمير، حيث قال: "إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وإن كان عظيماً..."[2]، وواضح من هذا النص نصح "ابن ظفر" للأمير باستخدام القوة والمكيدة (الحيلة) معاً فى سياساته إزاء أعدائه فإذا كان عدوه أضعف منه فليستخدم القوة وإذا كان أقوى منه فليستخدم الحيلة ولايتردد فى مواجهته، كما نصحه فى بعض الحالات بعدم التردد فى استخدام القوة كما فى حالة استخدام

---

[1] انظر: سلوان المطاع، المرجع السابق، من ص٢٥ إلى ص٣٤. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "عبد الملك" بعد أن قضى على "عمرو بن سعيد"، قاد بنفسه معركة العراق ضد "مصعب بن الزبير" الذى ولى البصرة من جانب أخيه "عبد الله" وانتصر فيها "عبد الملك" وقتل مصعب، وحينما لم يبقَ أمام "عبد الملك" إلا الحجاز بقيادة "عبد الله بن الزبير" أرسل إليه قائده الحجاج الذى حاصر مكة ورماها بالمجانيق، واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن "ابن الزبير"، وانتصر الحجاج قائد جيوش "عبد الملك" وقتل "عبد الله ابن الزبير". راجع فى هذا الشأن: السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٢١٦ وص٢٢١. ود. أحمد شلبى، المرجع السابق، جـ٢، من ص ٥٤ إلى ص٥٧.

[2] انظر : سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٢٩.

"عبد الملك" للقوة مع "عمرو بن سعيد" حيث قال "ابن ظفر" فى مثل هذه الحالة "إذا كانت الإساءة طبعاً، لم يملك لها الإحسان دفعاً"[1]"، وقوله: "اللئيم كالنار إكرامها، إضرامها"[2] .

ولقد نصح "ابن ظفر" الأمير إن كان فى موقف كموقف الخليفة "عبد الملك" المتقدم، بعدم التردد أو تهيب العدو وإلافسيفقد ملكه، حيث ذكر أن "عبد الملك" وهو فى شدة تأزم موقفه استشار وزراءه الذين ذهلت عقولهم (من شدة الموقف) وعلموا أن لا مقر ولا مفر فنكسوا رؤوسهم و لم ينطقوا، فقال لهم "عبد الملك" مالكم لاتنطقون، فقال له أحدهم: "وددت والله أنى كنت حرباء على عود من أعواد تهامة حتى تنقضى هذه الفتن[3]"، ففى نفس الوقت الذى ظهرت فيه صلابة "عبد الملك" عند الشدائد ظهر فيه تخاذل وزرائه عند ملاقاتهم عدوهم. وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير بقوله:"من تهيب عدوه فقد جيش إلى نفسه جيشاً[4]" أى من تردد وتخوف من لقاء عدوه فقد هُزم قبل أن يقاتله عدوه.

كما نصح "ابن ظفر" الأمير فى حالة استخدام القوة والحيلة معاً أو فى حالة تغليب القوة على الحيلة، بأن يحسن التدبير والتصرف فى سياساته تلك انطلاقاً من حقائق الواقع فلا مجال للخطأ أو التهور وإلا ضاع الملك، حيث قال: "إن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر"[5]، وقوله أيضاً: "العاقل يقدم التجريب على التقريب، والاختبار على الاختيار، والثقة على المقه[6] "، وقوله كذلك : "احترس من تدبيرك على عدوك

---

[1] المرجع السابق، ص٣٢.

[2] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[3] أى تمنى أن يكون حرباء لاترى فراراً من تلك الفتن. انظر المرجع السابق، ص٢٦.

[4] المرجع السابق، ص٢٩.

[5] المرجع السابق، ص٣٠.

[6] المرجع السابق، ص٣٢ ، والثقة مصدر قولك وَثِقَ به يثق، والوثيق: الشئ المحكم، ويقال أخذ بالوثيقة فى أمره فى معنى بالإحكام فى أمره، وذلك على عكس الأمقه من الناس: الذى يركب رأسه لايدرى أين يتوجه. انظر : لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ١٣ ص١٥٨، جـ١٥ ص٢١٢و ص٢١٣.
وفى معنى آخر : نصح " ابن ظفر " الأمير بأن يأخذ بالأمر الأشد المحكم (الثقة) إزاء المشكلة التى يواجهها ويقدمه على رأى أهل محبته وصحبته (المقه) ، والذى قد يجانبه الصواب، وذلك تبعا لكون المقه (من ومق) تعنى هنا المحبة . انظر فى هذا الشأن : المرجع السابق ، ج١٠ ، ص٣٧٢ ، وص ٣٨٥ .

كاحتراسك من تدبيره عليك، فرب هالك بما دبر ومكر، وساقط فى البئر الذى احتفر، وجريح بالسلاح الذى شهر[1]". وتظهر هذه النصوص واقعية "ابن ظفر" حيث نصح الأمير وهو فى تدبيره لسياساته المتقدمة أن يرتكز على التجربة المستقاة من الواقع، وليس على الظنون والتصورات غير الواقعية.

هذا ولم يترك "ابن ظفر" الاحتمال الثالث فى سياسات الأمير فى حالة وقوع الضرر، وهو تغليب الحيلة على القوة (بعد أن تكلم عن استخدام القوة والحيلة معاً، وتغليب القوة على الحيلة)، حيث ضرب مثالاً فى هذا الصدد، وهو مثال "المأمون" وأخيه "الأمين" (الخليفة آنذاك) وكان "المأمون" ولى عهده، ومقيماً بخراسان، حيث عزم الخليفة "محمد الأمين" على إخراج عهد الخلافة عن أخيه (عبد الله المأمون) ونقله إلى ولده "موسى"، فكتب "الأمين" إلى "المأمون" كتاباً يذكر فيه حاجته إلى لقائه ومفاوضته فى أمر جسيم ويسأله أن يستنيب بخراسان من يضبطها حتى يخرج منها فيسهل خلعه من ولاية العهد، ولما فطن "المأمون" لذلك امتنع عن الخروج بخراسان، فيئس "الأمين" من تمام مكيدته "للمأمون" فأمر بالقبض على من ببغداد من حشم المأمون وحرمه وبطانته وماظهر عليه من أمواله، ودعا الناس إلى البيعة لابنه "موسى" فأجابوه، واستكفل "للمأمون" علىّ بن عيسى بن ماهان"، وكان "علىّ" هذا قد ولى خراسان قبل ذلك مدة طويلة، وكان شأنه بها عظيماً فاستشاره "الامين" فى أمر خراسان فضمن له أمرها وأخبره أنه لو بلغ خراسان لم يختلف عليه اثنان، فجهزه "الامين" إليها وولاه كل بلد يغلب عليها وأعطاه أموالاً جزيلة، وبلغ ذلك "المأمون"، وعلم عجزه عن مقاومة "على بن عيسى"، فأعمل الحيلة، ورفض استخدام القوة، كما رفض اقتراحاً بالانحياز إلى ملك الترك حتى لايجعلُ للترك (آنذاك)

---

[1] سلوان المطاع ، المرجع السابق، ص٣٣.

على حرب المسلمين سبيلاً، وصبر على فعل أخيه رغم نقضه للعهد فـأنجح الله عمله، وبلغه من الخلافة أمله[1].

وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير بقوله: "إنه ينبغي للعاقل إذا دهمه ما لاقبل لـه به أن يلزم نفسه التسليم لحكم قاسم الحظوظ ولايضيع من ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر"[2]، وواضح من هذا النص دعوة "ابن ظفر" للأمير فى حالة أن يداهمه مالاقبل له به أن يغلب الحيلة على استخدام القوة، وأن يقرن ذلك بكونه فى موقف الدفاع لا الهجوم فإن لم ينتصر حصل على العذر، لأنه ليس البادئ بالغدر.

وجملة القول بشأن القاعدة (السلوانة) الأولى وهى التفويض، أنه فى حالة تعرض الأمير لوقوع الضرر نصحه "ابن ظفر" بالتعامل مع هذا الضرر انطلاقاً من التسليم لأحكام القدر من ناحية، ومن أن الحكم دائم العقبات من ناحية أخرى، كما نصح "ابن ظفر" الأمير بأن يقيم سياساته مع أعدائه على حسن التدبير المرتكز إلى حقائق الواقع، باستخدام القوة والحيلة معاً فى بعض المواقف، أو تغليب القوة أو الحيلة فى مواقف أخرى حسب مايمليه الموقف، وكل ذلك بهدف المحافظة على الحكم، وواضح من كل ما تقدم فى هذا الشأن إشارة "ابن ظفر" إلى "النسبية" فى تدبير أمور الحكم حيث لايؤمن بالأحكام المطلقة على الواقع ولابالتسليم المطلق للأحداث، ولا بالاستخدام المطلق كذلك للقوة فى كل الحالات. وهو بهذا كله يدعو الأمير القرشى "ابن حمود" إلى تغليب الحيلة فى التعامل مع ملك صقلية، ومع منافسيه على زعامة مسلمى صقلية، والعمل على

---

[1] نفس المرجع السابق، من ص٣٥ إلى ص٤٦. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الحادثة التى ذكرها "ابن ظفر" كانت قبل أن يأخذ المأمون قراره بقتال جيش الأمين، لأنه بعد ذلك حينما تيقن بأنه لامفر من القتال، دارت بين جيشهما معارك حربية طويلة قتل فيها "على بن عيسى"، وسقط فى نهايتها الأمين سنة ١٩٨هـ، وتولى المأمون الخلافة عقب ذلك، انظر فى هذا الشأن: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٥٩، جـ٣، ص٢٤٢، و د. أحمد شلبى، المرجع السابق، ص١٠٢ وص١٠٣.

[2] سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٤٠.

عودة الجزيرة للمسلمين، أو على الأقل أن يحافظ الأمير القرشي على وضعه ونفوذه بالجزيرة. ولعل "ابن ظفر" بذلك كله قد أوضح أسباب فقد صقلية نتيجة عدم الأخذ بأسباب الدفاع عنها أو المحافظة عليها من استخدام لوسيلتي القوة والحيلة مع حسن التدبير المستند إلى حقائق الواقع.

- القاعدة الثانية "التأسي" :

ولقد أوضح "ابن ظفر" مايقصده بالتأسي بقوله: "والأسى: هو الحزن، ولايعجبني هذا، وهو عندى مأخوذ من قولهم: أسوت الجرح والجريح - أى داويت، والآسى: هو الطبيب المداوي، فكان معنى التأسي: التطبب والتداوى بالصبر، والأسوة: اسم من هذا، والتأسي: تفعل من الأسوة"[١]. وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير فى حالة ضياع ملكه بألا يقف موقف الذهول وألا يتقاعس عن محاولة استرداده، حيث قال: "ينبغى ألا يذهل[٢] (الأمير) عن حظوظ جنسه منها ودولتهم فيها، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكرهم أخذهم انصباءهم وتقاضيهم حظوظهم، وليتأسَّ بصبرهم عند حوزه لها دونهم فيصبر لدولتهم الخالفة، كما صبروا لدولته السالفة"[٣]. كما نصح "ابن ظفر" الأمير فى هذه الحالة كذلك بأن يحافظ على نفسه ووضعه حتى لايفقد كل شئ بقوله: "تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأسَّ بهم ولاتذهل عن النعمة العظمى فى حفظ نفسك"[٤]. وتأكيداً لهذا المعنى من التأسي والمحافظة على النفس ضرب "ابن ظفر مثالاً" لسابور بن هرمز "ملك الفرس، و"قيصر" ملك الروم، حيث ذكر "ابن ظفر" أن "سابور" اعتزم على الدخول إلى بلاد الروم متنكراً متحسساً (رغم نصيحة وزرائه له بعدم الإقدام على ذلك)، ولما صنع "قيصر" وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم، حضرها "سابور"، ولما دخل "سابور" دار "قيصر" فطن إليه

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٨.

(٢) ومعنى يذهل - أى يترك الشئ أو يتناساه عن عمد أو يشغله عنه شغل. انظر فى هذا الشأن: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ٥ ص٦٨.

(٣) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص٦٤.

رجل من دهاة الروم، وأخبر "قيصر" بذلك، فأمر "قيصر" بالقبض على "سابور" وبقتله ليرعبه بذلك، ولما اعترف "سابور" بحقيقة أمره، أبقى "قيصر" على حياته وحبسه، وعزم على غزو بلاد الفرس، فسار بجنوده إليها، واقسم على إخراجها ومعه "سابور" محبوساً، لعلمه أنه لادافع يدفعه عنهم، فلما بلغ فارس أكثر فيها القتل والسبى وتغوير المياه وقطع الشجر وإخراب القرى والحصون حتى بلغ مدينة "سابور" وقرارة ملكه، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة فى دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها، ولما تحايل "سابور" وتخلص من حبسه وأسره، قصد مدينة ملكه، فقويت نفوس الفرس بسلامة ملكهم، وأخذوا أهبتهم، ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم بعد أسر ملكهم، حتى دهم "سابور" الروم وأخذ "قيصر" أسيراً وغنم خزائنه، ولم ينج من جنود "قيصر" إلا الشريد، وأبقى "سابور" على حياة "قيصر" كما فعل معه من قبل وأطلقه بشرط إصلاح ما أفسده[1] . وبهذا المثل أوضح "ابن ظفر" أنه فى حالة ضياع الملك لاذهول ولاتقاعس بل ثبات وصبر ثم انتهاز للفرص لعودة الملك، مع المحافظة على النفس لحين تحقيق ذلك، وهو بهذا يضع سبباً آخر فى ضياع صقلية وهو التقاعس والذهول الذى لحق بالمسلمين وعدم الأخذ بأسباب المحافظة عليها، حيث أكد "ابن ظفر" على ذلك المعنى بقوله:"ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرعت فى مفارقته والتحول عن قربه وهى: الملك والعلماء والنعم"[2].

وجملة القول بشأن قاعدة "التأسى"، أن "ابن ظفر" نصح الأمير فى حالة ضياع ملكه أن يتأسى من ذلك الوضع ويصبر كما صبر الذين أخذوا منه الملك حينما كان هو صاحبه، وألا يتقاعس فى الأخذ بأسباب عودة الملك إليه، وأن الحد الأدنى المطلوب منه هنا هو المحافظة على نفسه ووضعه ونفوذه لحين تحقيق ذلك الهدف، وإلا فقد كل شئ.

---

[1] المرجع السابق، من ص٥٠ إلى ص٧٢.

[2] المرجع السابق، ص٦٦.

- القاعدة الثالثة "الصبر":

وعن قاعدة الصبر قال "ابن ظفر" : "وهو (أى الصبر) ثمرة التأسـى[1] "، وقال أيضاً: "ومعنى الصبر الثبات"[2]، ونصح الأمير بالصبر فى حالة تألب المبطلين عليه، وتوجيه المكر والمكروه إليه[3] . ومن نصائحه فى الصبر : "الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر[4]"، وقوله كذلك: "وإن أقل فوائد الصبر على البلية أن الصبر عليها (من جانب الأمير) ينغص لذة عدوه المتشفى الشامت به"[5].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أهم ماجاء من نصائح فى إطار قاعدة الصبر، نصائح أو إن شئنا قواعد فى فن الحكم بشأن التعامل مع المحكومين ، وبصفة خاصة فى حالة تمردهم وفسادهم، حيث حدد "ابن ظفر" ما ينبغى أن يكون عليه سلوك الأمير فى هذا الشأن، فى شقين: شق وقائى وآخر علاجى.

أما عن **الشق الوقائى** (قبل وقوع التمرد)، فقد نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع قواعد معينة فى علاقته بالمحكومين حتى لايقع منهم التمرد مستقبلاً، وتتمثل هذه القواعد فيما يلى:-

أولاً: أن الحد الأدنى المطلوب من الحاكم هو المحافظة على الملك كما تسلمه، وذلك من ثنايا الابقاء على الحد الأدنى من الحقوق التى كانت للمحكومين قبل تسلمه الحكم، وإلا تمرد عليه المحكومون، ممايؤدى إلى زعزعة ملكه أو فقده حيث قال: "ينبغى لمن تغلب على ملك وغصبه.. أن يحفظ

---

[1] المرجع السابق، ص٧٣.

[2] المرجع السابق، ص٧٥.وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة "الصبر" لاتفسر على أنها قبول تحمل المحن والمظالم باستسلام كامل، فهى تشير إلى غير ذلك تماماً، فهى ليست سوى "المثابرة على الهدف والعمل المستمر للوصول إلى الهدف المحدد". انظر:-

-The book of arabic wisdom and guile, translated by Rener Khawam, Op.,cit., P.3.

[3] سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٧٣.

[4] المرجع السابق ص ٧٥.

[5] المرجع السابق، نفس الصفحة.

الصورة والشريطة التى تسلم عليها تلك المملكة فإنها محفوظة عليه وثابتة فى عقد تسلم تلك المملكة له وإلاقستخرج من يديه بمثل ماصارت إليه[1]".

ثانياً: عليه أن يتصدى لتذمر المحكومين بالقول، وألا ينتظر حتى يحدث التمرد من جانب المحكومين بالفعل، ذلك أن تجاهل تذمر المحكومين بالكلام هو البداية الحقيقية لحدوث تذمرهم بالفعل، حيث قال "ابن ظفر" هنا: "أيدى الرعية تبع لألسنتها، فإذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول "[2]، وقوله كذلك: "ترك نكير الصغائر مدعاة إلى الكبائر"[3]، كما راح "ابن ظفر" هنا يوضح سبل تصدى الأمير لتذمر المحكومين بالقول بقوله: "عليك بالصبر وكف الأذى وبسط العدل والإحسان وتأمين السبل وإجارة المستجير وتأليف المستوحشين والأخذ بالفضل والعفو"[4].

ثالثاً: عدم إعمال اللين الزائد مع المحكومين، وإلا حدث للأمير مثلما حدث للخليفة "عثمان بن عفان" (رضى الله عنه) حيث ذكر "ابن ظفر": أن الخليفة "عثمان بن عفان" قال لجلسائه وهو محصور فى الفتنة: "وددت لو أن رجلاً صادقاً أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء" - يعنى الذين حصروه. فقال رجل من الأنصار: "أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنك تطأطأت (اى قللت لهم من قدرك) لهم فركبوك، وتخادعت (يعنى تظاهرت لهم بأنك مخدوع) لهم فسلبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك. قال: صدقت. ثم قال له: "أتعلم أو هل لك علم بما يثير الفتن؟ قال: "نعم يا أمير المؤمنين، إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما الأثره تضغن الخامة (يعنى اختصاص بعض الخاصة للشيء دون غيرهم

---

[1] المرجع السابق، ص ٩٦ وص ٩٧.

[2] المرجع السابق، ص٩٦. وتصول من صول، والصؤول هو الذى يتطاول على الناس ويضربهم. انظر: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ٧، ص٤٤٤.

[3] سلوان المطاع، المرجع السابق.

[4] المرجع السابق، ص٩٦، كما ذكر "ابن ظفر" فى نفس الصفحة أن الأمير إذا اتخذ هذه الخلال شرعاً يدين به، زادت سمعته حسناً والقلوب إليه ميلاً والألسنة له شكراً.

فتثير الحقد عليهم)، والثانى حلم يجرئ العامة .. وإذا استحكمت الفتنة فليس لها إلا الأزم" (يعنى الصبر)[1].

أما عن الشق العلاجى: (بعد وقوع التمرد)، فإن "ابن ظفر" قد نصح الأمير بأمرين فى معالجته لتمرد وفساد الرعية:

أولهما: عدم استخدام العنف (القسوة) فى حالة تمرد المحكومين وإلا فقد ملكه، حيث قال "ابن ظفر": "هناك أمور من استقبلها بالعنف والردع هلك بها، الملك فى حال غضبه، والسيل فى حال صدمته، والعامة فى حال هيجها ومرجها"[2]، وقوله أيضاً: "إن أشبه شيء بردع العامة عند تنمرها وهيجها معاناة الجدرى فى حالة انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة"[3]، وقوله كذلك: "قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى مالا تريد من المعصية"[4].

ثانيهما: عدم التمييز بين من هو معه ومن هو ضده وبين من هو مرتاب، لاتخاذ ما يلزم حيالهم من التدبير، حيث قال "ابن ظفر": "البحث (فى مثل هذه الظروف) خطر عظيم لأنه يوحش المريب فيحركه إلى اللحاق بعدوك، وإذا التحق مع عدوك قاتل معه على بصيرة ليست لعدوك، وبذل جهده فى العود إلى وطنه وأهله وماله، وعدوك لايقاتلك على مثل ذلك. وربما لم ينفصل عنك المريب بل يعاديك بموضعه ويكاشفك ويتكثر عليك بشكله من الرعية فينصره، والعامى لاينظر إلى الملك من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى، بل ينظر إليه من

---

(1) المرجع السابق، ص٩٨، ص٩٩، والحامة يعنى الخاصة.

(2) المرجع السابق، ص ٨٦.

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة، والأطلية من طلى، والطلاء كل ما طليت به بالدهن وغيره. انظر لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ٨ ص١٩٤ وص١٩٧.

(4) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٩٦. ولعل هذه النصيحة مأخوذة من قوله "معاوية بن أبى سفيان": "إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٢، ص٢٩.

حيث خصيص تفرده وأنفته وعلو همته فينافره لذلك ويألف العامى الذى يشاكله فى الأخلاق بعلة المشاكلة"[١]، كما نصح "ابن ظفر" الأمير كذلك بألا يكاشف المحكومين بالامتحان فى مثل هذه الظروف (ادبار الملك) وإلا فخسارتهم محققة[٢].

هذا ولقد راح "ابن ظفر" يصور خاصية "الصبر" التى يجب أن يتحلى بها الأمير، على أنها الضابط لجميع خصاله من رحمة وحلم وشجاعة..، فلا يجب أن يفلت زمام الصبر من الأمير فى هذا كله وإلا وقع فى عديد من الشرور التى قد تودى بفقد حكمه، فالرحمة مع المحكومين تحتاج إلى صبر، والشجاعة كذلك تحتاج إلى صبر، حيث قال "ابن ظفر": "والصبر لهذه الخصال... ضابط لها ضبط الأمير جنوده عن مزايلة مراكزها، والإخلال بما نصب لها من دفاع وانتفاع..، والصبر أنواع.. والنوع اللائق بكتابنا هذا هو صبر الملوك، وصبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى : القوة الأولى: قوة الحلم، وثمرتها العفو، والقوة الثانية: الكلاءة[٣] والحفظ، وثمرتها عمادة المملكة، والقوة الثالثة: قوة الشجاعة، وثمرتها فى الملوك الثبات، وأما ثمرتها فى حماة المملكة من المقاتل، الاقدام فى المعارك، ولايراد من الملك الاقدام فى المكافحة، فإن ذلك من الملوك تهور وطيش وتغرير، وإنما شجاعة الملك ثباته حتى يكون قطباً للمحاربين، ومعقلاً للمنهزمين، وهذا

---

[١] سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٨٧. وهنا يظهر جانب من تحليل "ابن ظفر" النفسى، الذى ظهر أيضاً فى موضع آخر من كتابه حيث قال عن الشخص الذى يحاول نفى طبعه: "إنما كان المطبوع أملك من أدب المؤدب لأن الطبع أصلى وتمده القوى الناشئة معه، فهو أملك بالنفس التى هى محله لاستيطانه إياها وكثرة أعوانه بها، والأدب طارىء على المحل غريب به"، وقوله أيضاً: "أضل المودبين سعياً من طالب من المتأدب أن يعاونه على نفى طبعه عنه، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه واثر عنده من مؤدبه، لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المذموم من طباعه وتعمينه والتورية عنه".. المرجع السابق، ص١١٧ وص١١٨.

[٢] المرجع السابق، ص ٨٧.

[٣] والكلاءة هى الحفظ والحرس، وكلأك الله كلاءة يعنى حفظك وحرسك. انظر : لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، جـ١٢ ص١٣٢، ص١٣٤.

مادام بحضرته من يثق بذبه عنه ودفاعه دونه وحمايته له[١] ". وهنا انتقل "ابن ظفر" بعد ذلك الى ذكر حادثة تدلل على أن قوة الشجاعة فى الأمير تمرنها الثبات، حيث ذكر أن "موسى الهادى" كان يوماً فى بستان ومعه أهل بيته وبطانته، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من الخوارج جيئ به أسيراً، وكان "الهادى" حريصاً على الظفر به، فأمر بإدخاله بين رجلين قد امسكاه بيديه، فلما رأى الخارجى "الهادى" جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه واخترط (سل) سيف أحدهما ووثب نحو "الهادى"، ولما رأى ذلك من كان حول "الهادى" من أهله وخاصته فروا جميعاً وبقى "الهادى" وحده فتثبت بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف، قال "الهادى" اضرب عنقه ياغلام، فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ووثب "الهادى" على الخارجى، وسقط الخارجى تحته فقبض "الهادى" على يده وانتزع منه السيف فقتله[٢]. ولقد علق "ابن ظفر" على تلك الحادثة بقوله : "فهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملك، فإذا لم يكن بحضرة الملك من يثق بدفعه عنه، حسن حينئذ منه أن يذب عن نفسه، إما بالإقدام على العدو إن غلب على ظنه الامتناع منهم بالاقدام عليهم، أو بانهزامه إن أتاه مالاقبل له به[٣] ".

وجملة القول هنا بصدد قاعدة (سلوانة) الصبر، أنها أساس التعامل من جانب الأمير فى مواجهة المحكومين وخاصة فى حالة تمردهم، فاللين وهو أفضل الوسائل فى مثل هذه الظروف يحتاج من الأمير إلى صبر.

– القاعدة (السلوانة) الرابعة "الرضى":

وهنا أوضح "ابن ظفر" مقصده من الرضى حيث قال:" إنما هو عبارة عن العزم على توطين النفس على الرضى بالقضاء إذا نزل، وإنما يتحقق الرضى بعد

---

[١] سلوان المطاع، مرجع سابق، ص٧٥، ص٧٧.

[٢] سلوان المطاع، المرجع السابق، ص٧٧، وص٧٨. و"موسى الهادى" هو الخليفة العباسى الرابع، تولى الخلافة سنة ١٦٩–١٧٠هـ، بعد أبيه "المهدى" ، وهو أخو "هارون الرشيد" (الذى تولى الخلافة بعده). كما ذكرت تلك الحادثة التى أوردها "ابن ظفر" كذلك فى مروج الذهب للمسعودى ، جـ٢، ص٢٥٥، وص٢٥٦.

[٣] سلوان المطاع ، المرجع السابق، ص٧٧.

حصول القضاء".[1] ثم دلل على ذلك المعنى بمثال فقال: إن "يزدجرد بن سابور"، لما ولد له ابنه "بهرام جور"، أراد أن ينشأ بين أمة نابية ذات همم علية، ونفوس أبية، وبهم يصير الملك إليه، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق، ووقع اختياره عليهم، فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمي فاستحضره، ثم ملكه على العرب وسلم إليه ابنه "بهرام"وأمره بكفالته، ولما استوفى "بهرام" من السن خمس عشرة سنة استأذن "النعمان" الملك "يزدجرد" في القدوم عليه بولده، وكان "يزدجرد" فظاً غليظ القلب شديد الكبر، مجترئاً على سفك الدماء واغتصاب الأموال، فعامل ابنه "بهرام" بالقسوة التي طبع عليها وأتعبه وكده واستعمله على مجلس شرابه، فضاق "بهرام" ذرعاً بما ناله من أبيه، لكنه لم يظهر هذا التبرم، وأخذ يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها، ثم تحول "بهرام" إلى بلاد العرب، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه".[2]

وبعد أن انتهى "ابن ظفر" من سرد ذلك المثال راح يقدم للأمير عدة نصائح حيث قال: "فليصرف الأمير فكره إلى ماذكرته (الرضى بالواقع)، ليكون مايظهره من الغبطة راجعاً إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ولا يتخلق من ذلك بما يتمنى رفضه"[3]، كما نصحه بعدم التصنع (الرياء) مدللاً على ذلك بقوله: "لأن الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولايخفى على البصائر الباصرة"[4]، وقوله: "فلا ينبغي (على الأمير) أن يظهر من ذلك مايبطن خلافه".[5] ونصحه كذلك بقوله : "إن من صحب الملوك بما لايوافقها تحركت عليه بالغضب"[6] .

---

[1] المرجع السابق، ص١٠١.

[2] المرجع السابق، من ص١٠٣ إلى ص١٢٤.

[3] المرجع السابق، ص١٠٥.

[4] المرجع السابق ، نفس الصفحة.

[5] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[6] المرجع السابق، نفس الصفحة.

كما نصح "ابن ظفر" الأمير بعدم إفشاء سره حيث قال: "أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول البر، وافشاء السر، وشرح هذا إن قبلت بره فقد أوجبت على نفسك الخضوع له، والإحسان يرق الإنسان، وكذلك من أُطلعته على سرك فإن حذرك من إفشائه يلزمك ذل التقية".[1]

ونصحه كذلك بالحذر من الأعداء حيث قال: "عدوك ضدك وحكم الضدين التنائى والتنافر والتباين والتدابر"[2]، وقوله :"لا تطأ أرضاً وطئها عدوك إلا على توق واحتراس وتوقى افتراس، ولايغرك خروجه منها وبعده عنها فربما رتب فيها شباكاً ونصب لك بها أشراكاً"[3]، وقوله كذلك : "لاتغش عدوك إلا متسلحاً متحرزاً (يعنى متوقياً) متحفظاً، ولايغرك منه استسلامه والقاؤه السلاح فما كل سلاح يدرك البصر".[4]

ونصحه أيضاً بأن يحذر الكذب قائلاً (كما سبق الإشارة إلى ذلك): "الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغى (للأمير) أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح كالكذب فى كيد الأعداء، وفى تأليف البعداء، كما لاينبغى أن يطلق (الأمير) تلك السموم التى ذكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين"[5] .

---

[1] المرجع السابق، ص١١٠.

[2] المرجع السابق، ص١٠٦.

[3] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[4] المرجع السابق، نفس الصفحة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد نصح الأمير (فى موضع آخر) بالنسبة للحذر من العدو بألا يصغى إلى دعاية العدو قائلاً: "صرفك النظر إلى عدوك إضاعة، واصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة"، وقوله أيضاً: "إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيده أعجز". انظر : المرجع السابق ، ص٩٤.

[5] المرجع السابق، ص١١٨، وص١١٩.

كما حذر "ابن ظفر" الأمير من اليأس والملل وهو فى طريقه لتحقيق هدفه حيث قال : "السآمة من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة".[1]

وجملة القول بشأن قاعدة الرضى أنها جاءت لتحدد علاقة الأمير القرشى "ابن حمود" بملك صقلية، حيث نصحه "ابن ظفر" وهو بصحبة الملك ألا يخالفه وإلا تحرك عليه بالغضب فيفقد نفوذه بالجزيرة، وأن يوطن نفسه على الرضى بما هو فائم ليكون ما يظهره من غبطة متوافق مع مابداخله، ونصحه وهو فى هذه الحالة بعدم الكذب على نحو ما أوضح، وبعدم إفشاء سره، والحذر من أعدائه، ومن اليأس فى هذه المرحلة.

– السلوانة الخامسة "الزهد":

وطبقاً لهذه القاعدة نصح "ابن ظفر" الأمير بأنه لو خرج الأمر من يده، وكانت الظروف المحيطة به أقوى منه، فعليه بالزهد فى الملك. و"ابن ظفر" هنا لم يتحدث عن الزهد فى نعيم الملك مع عدم نبذه حال الخلفاء "أبو بكر"، و"عمر"، وإنما تحدث عن الزهد فى الملك مع نبذه له وتخليه عنه "حال معاوية بن يزيد": كان على صغر سنه عالماً عاملاً، أفضت الخلافة إليه وسنه سبع عشر سنة، فخلعها".[2] وهنا برر "ابن ظفر" ذلك بقوله: "وأى خير فى الملك وصاحبه إما قائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه فذلك مسلوب اللذة والقرار منغص العيش، وإما منقاد لشهواته مؤثر للذاته مضيع للحقوق مُضرب عن الشكر فمصيره إلى النار.. وإذا كان الملك والنعيم إلى زوال فأى خير فيما يفنى ويبيد؟".[3]

كما دعا "ابن ظفر" الأمير كذلك إلى التحرر من عبودية المُلك قائلاً: "وإذا كانت العبودية كناية عن خدمة المعبود والحاجة إليه فأعبد العبيد الملك.. وذلك لأن الرعية تستخدم باطن الملك وظاهره فى تدبيرها وتأديبها وصونها من عدوها

---

[1] المرجع السابق ، ص١١٦، والسآمة تعنى الملل واليأس.

[2] المرجع السابق، ص١٣٠.

[3] المرجع السابق، ص١٣٢.

وعونها على مصالحها وردع ظالمها ونصر مظلومها وتأمين سبلها وسد ثغورها والإعداد لما ينعشها فى الجدوب ولما يحصنها فى الحروب وجباية فضول أموالها وصرفها فى صلاح أحوالها وحسم أسباب هيجها وإزاحة علل فتنها وهرجها، هذا مع شدة حاجة الملك إلى رعيته فى صون نفسه وتنفيذ أمره وإمحاض نصحه ودفع عدوه".[1]

وأخيراً ختم "ابن ظفر" نصائحه للأمير فى إطار (سلوانة) الزهد بنصحه بالزهد فى الدنيا قائلاً: "قريب سلبها من سلمها، وخطفها من عطفها، والعاقل من أهلها من استعد لحيلها، وليس الاستعداد كذلك إلا للتأهب لبغيها المكتوم، وفراقها المحتوم، فالاستكثار منها نقيض ذلك".[2]

وهكذا، يتضح من كل ماتقدم بشأن القواعد (السلوانات) الخمس، التى قدمها "ابن ظفر" للأمير القرشى "ابن حمود" أنه قصد بها أن تكون خطوات نحو تحقيق هدف هو: عودة صقلية إلى حوزة المسلمين. فبدأ معه بقاعدة التفويض وقدم فى إطارها مجموعة نصائح فى حالة وقوع الضرر (والضرر هنا هو فقد صقلية) تدعوه إلى استخدام وسائل يسعى بها لتحقيق هدفه، تمثلت فى وسيلتى القوة والحيلة معاً أوتغليب إحداهما (وخاصة وسيلة الحيلة) بحسب مايمليه الموقف، وتدبير أمره فى ذلك كله استناداً إلى حقائق الواقع. وفى حالة كون الظروف أقوى من الأمير فى سعيه لتحقيق هدفه (عودة صقلية) فيجب عليه ألا يذهل وألا يتقاعس عن الوصول إلى هدفه، وفى هذه الظروف مطلوب من الأمير كحد أدنى المحافظة على نفسه ووضعه فى الجزيرة، وكل هذا فى إطار ما أسماه بسلوانة التأسى. وواضح أن القواعد التى جاء بها "ابن ظفر" فى إطار قاعدتى (سلوانتى) التفويض والتأسى تحدد ماينبغى أن يسلكه الأمير فى سياساته مع الملوك والأمراء

---

[1] المرجع السابق، ص١٤١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه النصيحة رغم أن ظاهرها يدعو إلى الزهد فى الملك إلا أنها تحدد حقوق وواجبات كل من الملك والرعية المتبادلة.

[2] المرجع السابق، ص١٤٥.

الأخرين. أما القواعد التي ينبغى أن يسلكها الأمير مع رعيته فقد فصلها فى قاعدة الصبر (وخاصة فى حالة تمرد الرعية أو فسادها، وفى حالة "ابن حمود" فإن فساد الرعية تمثل فى معاصرته لمحنة تنصير المسلمين ومفارقتهم الدين) فأوضح له كيف يتعامل مع الرعية باللين والرحمة لا بالقسوة فى حالة فسادها. ولما رأى "ابن ظفر" أن ظروف الأمير القرشي (ابن حمود) كانت أقوى منه وأنه أخفق فى تحقيق هدفه، نصحه بالرضى بما هو قائم، كما دعاه الى الزهد فى الحكم فى حالة خروج الأمر من يده.

هذا ولئن كان الأمير القرشى "ابن حمود" قد أخفق فى تحقيق هدفه، فإن هذه النصائح التى قدمها "ابن ظفر"تصلح بصفة عامة لكى تكون قواعد لفن أصول الحكم يستخدمها أى حاكم فى كسب حكم أوالمحافظة عليه، وفى كيفية إدارة سياساته الداخلية والخارجية بالقوة والحيلة وباللين وكل ذلك ضماناً لقوته.

- نصائح جامعة فى فن الحكم "لابن ظفر" :

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد قدم نصائح جامعة لعملية الحكم، منها نصيحة تحدد ركائز الحكم حيث قال:-

"وفضيلة ذات الملك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، ولبابة يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهز بها الفرص".[1] ويظهر هذا النص ركائز الحكم، والتى تتمثل فى: توفير الحماية والأمن للمواطنين، ومعاملتهم بالرحمة، ووجود جيش وطنى قوى يدفع عنهم، ومهارة دبلوماسية فى معاملة الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص لتحقيق المصالح الوطنية.

كما قدم "ابن ظفر" كذلك نصيحة جامعة تحدد مؤشرات زوال الحكم، حيث قال: "ويستدل على إدبار الملوك بخمسة أمور: أحدها: أن يستكفى الملك بالأحداث ومن لاخبرة له بالعواقب، والثانى: أن يقصد أهل مودته بالأذى،

---

[1] المرجع السابق، ص٥٥.

والثالث: أن ينقص خراجه عن قدر مئونة المملكة، والرابع: أن يكون تقريبه وإبعاده للهوى لا للرأى، والخامس: استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة".[١] وتبين هذه النصيحة أسباب فقد الملك وتحدد مؤشرات زواله والتى حددها "ابن ظفر" فى استعانة الحاكم بوزراء ومستشارين لاخبرة لهم بعملية الحكم، وأن يتجه الحاكم لمعاملة رعيته بالقسوة وينال أهل مودته بالأذى، وأن لايستطيع توفير الاحتياجات الضرورية لإمارته فى حالة نقص موارده عن احتياجاتها، وأن يكون تقريبه وإبعاده لبطانته للهوى لا للموضوعية، واستهانته بذوى الخبرة والحنكة من مواطنيه.

هذا وانطلاقاً من هاتين النصيحتين الجامعتين، ومما تقدم كله بشأن نصائح "ابن ظفر" للأمير فى كتابه "سلوان المطاع"، يستخلص الباحث الأصول العامة لفن الحكم عند "ابن ظفر" فى إطار السياستين الداخلية والخارجية كمايلى:-

بالنسبة **للسياسة الداخلية**، نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع القواعد التالية:

أولاً: الإبقاء على الحد الأدنى من الحقوق للأفراد عند تسلمه للحكم، فلايسعى الأمير إلى إنقاصها وإلا تألب عليه أفراد مجتمعه. **ثانياً:** توفير الاحتياجات الضرورية لمجتمعه، من خلال حفظ التوازن بين خراج (موارد) المجتمع وقدر مئونته (متطلباته)، فإن نقص الخراج عن قدر مئونة المجتمع كان ذلك مؤشراً لزوال الحكم. **ثالثاً:** أن تكون الرحمة أساس التعامل مع المحكومين، بلا لين زائد، ولاقسوة فى غير مكانها، وإذا كان الأمر يتطلب استخدام القسوة (مع الخارجين عن صف الجماعة) فإن ذلك من باب قتال أهل البغى الذين يشقون عصا الطاعة ويسعون إلى تقويض كيان المجتمع وتهديد وحدته[٢]، أما فى حالة تمرد الرعية وفسادها فلا مجال إلا لاستخدام اللين. **رابعاً:** توفير الأمن للمحكومين

---

[١] المرجع السابق، ص٤٢.

[٢] وعلى حد قول "ابن ظفر" كما تقدم : "إذا كانت الإساءة طبعاً، لم يملك لها الإحسان دفعاً". انظر: المرجع السابق، ص٣٢.

(بقظة تحوطهم) وحماية أرواحهم وأملاكهم . **خامساً**: تدبير وتأديب وصون الرعية من عدوها وعونها على مصالحها وردع ظالمها ونصر مظلومها وتأمين سبلها وسد ثغورها والإعداد لما ينعشها فى الجدوب ولما يحصنها فى الحروب وجباية فضول أموالها وصرفها فى صلاح أحوالها، وحسم أسباب هيجها وإزاحة علل فتنها وهرجها، فإن أفلح الأمير فى تنفيذ ذلك استطاع أن يستعين برعيته فى صون نفسه وتنفيذ أوامره وإمحاض نصحه ودفع عدوه.

وفى شأن السياسة الخارجية، نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع القواعد التالية:

أولاً: حسن التدبير القائم على حقائق الواقع لا على الظنون والتصورات اللاواقعية.

ثانياً: استخدام وسيلتى القوة والحيلة[1] معاً أو تغليب إحداهما بحسب ما تمليه طبيعة الموقف.

ثالثاً: وجود جيش وطنى قوى (صولة يدافع بها عن مجتمعه).

رابعاً: توفر الحزم اللازم لانتهاز الفرص فى تحقيق الأهداف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد أوضح على طول كتابه ضرورة ألا ينفرد الحاكم وحده باتخاذ القرار، وألزمه المشورة وأخذ النصيحة من وزرائه وذوى الرأى والخبرة، فكتابه مشحون بنصائح فى هذا الإطار، منها : "إنما يسعد النصحاء بمثله إذا كان مؤيداً بفضيلة العقل، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به ذوو الملق (المداراة)، وهذا لأن الناصح ينفق على من نصح له

---

[1] وعلى نحو تسميتهما المعاصرة: الإستراتيجية والدبلوماسية.

من عقله، وبالعقل يدرك العقل"[1] ، وقوله أيضاً: "النصائح بشعة المبادئ حلوة العواقب، فهى كالأدوية يسوء استعمالها ويسر مآلها، ويذم عبها (يعني كثرتها) ويمدح غبها (قلتها)".[2]

كما نصح "ابن ظفر" الحاكم بأن يستخدم طلب النصيحة أداة لاختبار ناصحيه ومعرفة نواياهم وخباياهم، حيث قال : "الرأى مرآة العقل، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره"[3] ، وقوله: "انظر إلى المنتصح فإن أتاك بما يضر غيرك ولاينفعك فاعلم أنه شرير، وإن أتاك بما ينفعك ويضر غيرك فاعلم أنه طامع، وإن أتاك بما ينفعك ولايضر غيرك فاصغ إليه وعول (يعنى اعتمد) عليه".[4]

وعمن يتجه إليه الحاكم بطلب النصيحة قال "ابن ظفر" : "إذا احتجت إلى المشورة فشاور ذا الحنكة والتجربة من طبقتك، ولاتشاور من ليس من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجاً عن عالم خصائصك"[5] ، وقوله أيضاً: "من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقط غلط...، وإنما كانت فطن الوزراء أثقب من فطن الملوك لأن الملوك يتفقهون أبداً فى سياسة من دونهم من الرعايا لاغير، والوزراء يتفقهون فى سياسة الملوك وسياسة الرعايا، فهم أشبه بالجوارح التى تصيد وتفترس ويصيدها أيضاً جوارح أشد منها فهى أعرف الجوارح بمكايد الاحتراس ومكايد الاكتساب".[6]

---

(1) المرجع السابق ، ص١٠٤.

(2) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(3) المرجع السابق، ص٣١.

(4) المرجع السابق، ص٩٠.

(5) المرجع السابق، ص٩٠.

(6) المرجع السابق ، ص٥٧.

ولقد أوضح "ابن ظفر" كذلك الكيفية التي يتلقى بها الحاكم النصيحة، وذلك بقوله: "لايكن سمعك لأول مخبر ولاثقتك لأول مجلس"[١]، وقوله: "إنما يفضي بصدق الخبر عصمة المخبر لاصدقه". وشرح هذا: أن المخبر الصادق إذا لم يكن معصوماً فهو عرضة للتلبيس وفرصه للتدليس، وكون المخبر ثقة صدوقاً إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله، ولايفيد عصمة إدراكه، فقد ينظر الصادق المغفل.. إلى القمر ودونه مقطعات السحاب فيخبر بأنه أدرك سرعة سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البر فيزعم أن البر يجرى.. فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه".[٢] وواضح أن هذه النصوص تبين عمق تحليل "ابن ظفر" وواقعيته حتى فى تحديد القواعد التي يتلقى بها الحاكم النصيحة.

هذا وفى حالة ركوب الحاكم رأيه وعدم أخذه بالنصحية قال: "إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه، فمن قوى تخيل فكره فهو فى سلطان الرأى غالب، ومن ضعف تخيل فكره فهو فى سلطان الهوى غالب، وعلى حكم هذا القانون: فمن عدم الفكرة فى الأمور التحق بالبهائم".[٣] ولقد أوضح "ابن ظفر" من قبل أن من علامات إدبار الحكم استهانة الحاكم بنصائح ذوى الآراء والخبرة.

وجملة القول فى كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر" العربي الصقلى: أن الكتاب فى جملته (من بدايته إلى نهايته) قواعد لفن أصول الحكم فى الداخل والخارج، توضح كيفية كسب الحكم ووسائل المحافظة عليه، وأسباب فقده، وتحدد وسائل التعامل من جانب الأمير مع رعيته ومع أصدقائه ومع أعدائه فى الخارج..، وكل هذا يؤكد عناية "ابن ظفر" بما نسميه اليوم "بفن السياسة"،

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص٤٣.

حيث انطلق من الواقع مستهدفاً تصوير قواعد عمل فى خدمة "فن الحكم" لكى يتغير بها أسلوب العمل السياسى ضماناً لفاعليته.

- موقع "ابن ظفر" من المفكرين الإسلاميين السياسيين:

وإذ انتهى الباحث من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر"، يعرض هنا لموقع "ابن ظفر" بين المفكرين المسلمين السياسيين، وبصفة خاصة بين مفكرى أهل السنة والجماعة، :"فابن ظفر" العربى، الصقلى المولد، المكى الأصل، يعد من فقهاء أهل السنة والجماعة، ومن أشهر كتاباته "المسنى فى الفقه على مذهب الإمام مالك" كما تقدم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يشترك مع غيره من المفكرين الإسلاميين السياسيين فى إفراد كتاب لنصح الملوك، حال "الماوردى" (٤٥٠هـ) فى كتابه "نصيحة الملوك"، وأيضاً فى كتابه "تسهيل النظر وتعجيل الظفر-فى أخلاق الملك وسياسة الملك"، وكتاب "التبر المسبوك فى نصيحة الملوك" "للغزالى" (٥٠٥هـ) ، وغيرها من كتب النصيحة. لكن هذه الكتابات يغلب عليهاطابع الحكمة السياسية، والذى يميز "ابن ظفر" عمّنعداه هنا من المفكرين الإسلاميين السياسيين هو تفرده فى تصوير هذه النصائح من الواقع، حيث ظهرت نزعته الواقعية فى تقديمه لنصائحه، وفى تصويره لقواعد وأصول فن الحكم.

وللباحث هنا تصنيف للمفكرين السياسيين الإسلاميين[1] ، وبصفة خاصة لمفكرى أهل السنة والجماعة، يوجزه ويضيف عليه ويضع "ابن ظفر" فى موقعه من هذا التصنيف:-

الفريق الأول: وهو فريق تأثر تأثراً بالغاً بالفكر اليونانى، وأصحابه مجرد نقلة لهذا الفكر، ويضم هذا الفريق : "الكندى" (٢٥٢هـ)، و"الفارابى" (٣٣٩هـ)، و"ابن رشد" (٥٩٥هـ)، هذا مع التمييز هنا بين "ابن رشد" من

---

[1] ولقد أورد هذا التصنيف فى كتابه: شرعية السلطة فى الإسلام- دراسة مقارنة، دار الجامعة الجديدة بالإسكندرية، ١٩٩٦، من ص١٥٠ إلى ص١٩١.

ناحية، و"الكندى" و "الفارابى" من ناحية أخرى، حيث يعد "ابـــن رشـــد" فى مواجهتهما ضالعاً فى الفلسفة اليونانية، وأفقههم وأعلمـــــهم فى مجـــال الفكـــر الإسلامى.

الفريق الثانى: وهو الفريق الذى كتب أصحابه كتبـــاً مـــداراة ومـــراءاة للحكام، ويلتقون على أنه فى حالة خروج الحاكم فى قراراته عن الكتاب والسنة فإن على المحكومين الصبر، وعلى الله الجزاء، ويضم هذا الفريق: "ابـــن المقفـــع" (١٤٢هـــ) فى كتابه "الأدب الكبير" ، و "الطرطوشى" (٥٢٠هـــ) فى مؤلفـــه "سراج الملوك" ، و"ابن الحداد" (٦٤٩هـــ) فى مصنفه "الجوهر النفيس فى سياسة الرئيس"، ويضم هذا الفريق كذلك : "الغزالى" (٥٠٥هـــ) فى كتابيـــه "التـــبر المسبوك فى نصيحة الملوك" و"الإحياء"، ولكن مايميز "الغزالى" عن بقيـــة هـــذا الفريق أنه أقام رأيه فى هذا الشأن على أساس اجتماعى وليس على أساس ديـــنى، واعتبره رأياً شخصياً.

الفريق الثالث: وهو الفريق الذى يمثل أصالة الفكر السياسى الإســـلامى، المستمد من الكتاب والسنة، وهذا الفريق يضم ثلاث مجموعات، ولئن كـــانت هذه المجموعات تتباين فى المنهج إلا أنها تلتقى كلها فى النتائج والتى لاتخرج عـــن أحكام الشريعة:

– المجموعة الأولى :

وهى تضم : شهاب الدين ابن أبى الربيع (٢٧٢ هـــ) فى مؤلفه: "ســـلوك المالك فى تدبير الممالك"، و"المـــاوردى" (٤٥٠هـــــ) فى مؤلفـــه "الأحكـــام السلطانية"، و"الجوينى" (٤٧٨هـــ) فى مؤلفه "غياث الأمم"، و"ابـــن تيميـــة" (٧٢٨ هـــ) فى مؤلفه "السياسة الشرعية". وهذه المجموعة تمثل قمـــة الأصالـــة الإسلامية فى مجال الفكر السياسى ، حيث تمثلت الإسلام بمصدريـــه "الكتـــاب والسنة" خطها العريض فلم تحد عنهما، وكان منهجها فى البحث منطلقاً منـــهما موصولاً بهما، ومنهج هذه المجموعة هو المنهج الاستنباطى.

المجموعة الثانية :

وهى مجموعة نهج أصحابها منهجاً جديداً لم يسبقهم إليه أحد فى الدراسات الاجتماعية والسياسية، حيث تناولوا عالم السياسة بواقعه وليس بما يجب أن يكون مستهدفين تفسير ظواهره فكانوا بذلك نموذجاً للمنهج العلمى التجريبى فى الفكر السياسى الإسلامى، وفى مقدمة هذه المجموعة: "ابن خلدون" (٨٠٨ هـ) فى مقدمته الشهيرة، وهو يعد وبحق مؤسس المنهج العلمى التجريبى فى مجال الدراسات الاجتماعية والسياسية على مستوى المعرفة الإنسانية قاطبة. كما تضم هذه المجموعة "أبا عبد الله بن الأزرق" (٨٩٦ هـ) فى كتابه : "بدائع السلك فى طبائع الملك"، وهو كتاب لايقل فى منهجيته عن مقدمة "ابن خلدون" بل يزيد على "ابن خلدون" فى إفراده كتاباً للفكر السياسى (بدائع السلك فى طبائع الملك) من ناحية ، ومن ناحية أخرى رد كل فكرة ليس هو قائلها إلى مصادرها الأصلية.

- المجموعة الثالثة:

ويمثلها "ابن ظفر" وحده، حيث انطلق فى تصويره لقواعد فن أصول الحكم من الواقع، فإمعاناً فى وصفه للواقع (حيث لم يستهدف تفسير الواقع حال "ابن خلدون" و "ابن الأزرق") راح يصور مجموعة قواعد عمل لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته فى الداخل والخارج أكثر قوة وفاعلية، فكان بذلك مؤسساً لفن السياسة (على مستوى الفكر الإنسانى قاطبة) من ناحية، وكان بذلك أيضاً إماماً للواقعية السياسية من ناحية أخرى (تبعاً لارتباطه الشديد بالواقع عند تصويره لقواعد فن أصول الحكم، واتخاذه التاريخ كأداة لملاحظة الواقع السياسى)، أوبعبارى أخرى: كان بذلك مؤسساً للمنهج الاختبارى (الاستقرائى) فى الدراسات السياسية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك خطأ شائعاً مفاده أن أرسطو (فى القرن الرابع ق.م) هو مؤسس المنهج الاختبارى (الاستقرائى) فى الدراسات السياسية، وذلك أن أرسطو قد لجأ فى دراسته للنظم السياسية إلى الملاحظة، ولكنه استهدف بها الاقناع بما يجب أن تكون عليه النظم فى ضوء مُثل معينة، فهو إن كان قد بدأ واقعياً إلا أنه استهدف ما يجب أن يكون عليه هذا الواقع، فكان منهجه بذلك منهجاً فلسفيا[1] أما "ابن ظفر" فقد انطلق فى تصويره لقواعد فن أصول الحكم من ملاحظة الواقع، واستهدف وصف هذا الواقع، وإمعاناً فى وصفه لهذا الواقع صور مجموعة قواعد عمل من ثنايا مجموعة ملاحظات للواقع السياسى، استقرأها من التاريخ، فكان منهجه بذلك منهجاً اختبارياً (استقرائياً)، وله السبق على "ماكيافللى" فى هذا الشأن؟

♦ ثالثاً: فن السياسة عند "مكيافللى" الإيطالى :

– التعريف بمكيافللى :

ولد "نيقولا مكيافللى" فى مدينة "فلورنس" بإيطاليا سنة ١٤٦٩ م، ورغم أن مدينة "فلورنس" كانت آنذاك من أكبر مراكز الثقافة فى أوربا فى عصر النهضة، إلا أن ظروفها السياسية كانت مضطربة، شأنها شأن باقى الإمارات الإيطالية حيث الفساد السياسى والانحطاط الخلقى، وفى هذه الظروف نشأ

---

[1] انظر فى هذا الصدد: د. محمد طه بدوى، النظرية السياسية، مرجع سابق، ص٢٦٤، ص٢٧٣.

"مكيافللى"، والتحق عام ١٤٩٤م بخدمة الحكومة وهو فى سن الخامسة والعشرين، ورقى عام ١٤٩٨م إلى وظيفة سكرتير للمستشارية الثانية "بفلورنس"، والتى تشرف -وفق دستور فلورنس- على الشئون الخارجية والعسكرية، وأصبح "مكيافللى" آنذاك من واضعى سياسة "فلورنس" ومخططيها، حتى أنه اختير فى أربع وعشرين بعثة دبلوماسية (لفرنسا وروما وغيرهما..)، وقضى "مكيافللى" ثلاثة عشر عاما فى عمله هذا مما أكسبه خبرة ودراية بالوحدات السياسية فى أوربا آنذاك. لكن انحيازه إلى جانب الجمهوريين (شأن والده الذى كان يعمل بالمحاماه ومن المنحازين لهم) فى صراعهم ضد أسرة "مديتشى" أفقده منصبه بعد عودة هذه الأسرة للحكم، ونفى "مكيافللى" من مدينته حيث أرغمته الحكومة الجديدة على التزام ضيعته بالريف لايبارحها (معتمداً على دخل متواضع يجنيه منها)، وفى المنفى عوض "مكيافللى" إخفاقه فى المنصب الحكومى بالخوض فى مجال التأليف، فوضع كتابه "الإمارات" والذى عرف فيما بعد "بالأمير"، واعتزم إهداءه إلى أحد أمراء أسرة "مديتشى" آملاً بذلك أن يدعوه المديشيون للعودة إلى الخدمة العامة والجاه والمنصب، وبفضل وساطة أصدقائه أُوفد "مكيافللى" فى أخريات أيامه فى بعثات دبلوماسية (لكن لاشأن كبير لها)، كما عهد الكاردينال "دى مديتشى"، الذى أصبح فيما بعد البابا "كليمنت" السابع، إلى "مكيافللى" بكتابة "تاريخ فلورنس" مخصصاً له راتباً سنوياً صغيراً. ولقد خلف "مكيافللى" - بعد قراءاته الترجمات اللاتينية لمختلف الكتب الإغريقية القديمة - عدة مؤلفات سياسية، لكنه اشتهر بكتابين اثنين:-

أولهما: كتاب "الأمير" وأتمه سنة ١٥١٣م، ولقد وزع الكتاب على شكل مخطوط ونسخ عدة مرات، ولكنه لم يطبع إلا بعد وفاته بخمس سنوات عام ١٥٣٢م، ولئن كان هذا الكتاب قد أخفق فى الواقع فى تحقيق هدف مؤلفه المباشر (وهو تحرير إيطاليا من الغزاة وتوحيدها) لكنه يعتبر أحد خمسة كتب أثرت فى التفكير السياسى الغربى. [١]

وثانيهما: مطارحاته، وهى دراسات فى الكتب العشرة الأولى للمؤرخ "تيتوس ليفى" وأتمها سنة ١٥٢١، وقد جعل من تاريخ روما نقطة بداية بحثه. [٢]

- الظروف التاريخية التى عاصرها "مكيافللى" :

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه فى أوائل العصر الوسيط كانت السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى يد الإمبراطور الرومانى، ولما اتسعت سلطة الكنيسة فيما بعد أصبحت وحدها صاحبة القول الفصل فى تحديد علاقة الفرد بالمجتمع، وبالسلطة القائمة، وإليها وحدها كان يرجع الأمر كله فى وضع مقاييس الخطأ والصواب. لكن الأمور تطورت بعد ذلك بفضل اتصال الجيوش المسيحية الأوربية بالمسلمين إبان فترة الحروب الصليبية، حيث وجد الأوربيون حضارة وثقافة لايمكن أن تقارن بحضارتهم وثقافتهم البدائية آنذاك، و لم يجدوا أثراً لسيطرة رجال الدين وحجرهم على حرية الفكر وتقييد السلوك، كما لم يجدوا

---

[١] وهذه الكتب هى: الليفيثان "لهوبز"، وكتاب الحكومة المدنية "للوك"، وكتاب روح القوانين "لمونتسكييه"، وكتاب العقد الاجتماعى "لروسو".

[٢] راجع فيما تقدم بشأن التعريف بمكيافللى وبمؤلفاته: فؤاد محمد شبل، الفكر السياسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، جـ١، من ص٣٣٩ إلى ص٣٤١. وكذلك:-

- G. Mosca, Histoire des doctrines politiques, Op. cit., PP. 108-111.

وانظر أيضاً مقدمة الترجمات التالية (لكتاب الأمير):-

- Niccolo' Machiavelli, The prince, introduction, translation, and notes by Paul Sonnino, New Jersey, 1996, PP. 3-20.

- The Prince by Niccolo Machiavelli, translated by Daniel Donno, Edited and an introduction by the translator, New York, 1981, PP. 1-11, P.123, P.124.

أثراً لفكرة أن رجل الدين هو الواسطة بين الفرد وربه، كما شاهد كل مسيحى أوربى طلب العلم فى جامعات الأندلس، وكل من زار صقلية حرية البحث والتسامح الدينى، ولقد كانت هذه الأفكار الإسلامية هى الركيزة الروحية لحركتى النهضة والإصلاح فى أوربا، كما كانت المطبعة والبوصلة والبارود دعامتها المادية (نتيجة اتصال الجيوش الأوربية كذلك بالتتار الغزاة المتأثرين بالحضارة الصينية) إذ حطمت المطبعة احتكار رجال الكنيسة للمعرفة التى كانت وقفاً عليهم طوال ألف سنة، كما دمر البارود نظام الفروسية الذى كان وسيلة النبلاء فى اخضاع جمهرة الأفراد، فأودى ذلك بنظام الإقطاع، كما أعانت البوصلة الملاحين والتجار على ارتياد البحار الواسعة، فجلبوا لمواطنيهم سلعاً وأفكاراً لا عهد لهم بها، وكل هذا ساعد على انهيار أوضاع القرون الوسطى، ومن هنا أخذ المفكرون يهاجمون الكنيسة، ويهتدون بالعقل فى تدمير دعاوى رجالها. ولقد انحسر مد القرون الوسطى عن الحياة السياسية الأوربية بفعل العوامل الروحية والمادية السالفة والتى كان من آثارها حركة النهضة : La Renaissance، وحركة الإصلاح الدينى، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه نتيجة لحركة النهضة عاد العقل الأوربى إلى الثقافة اليونانية (الوثنية) القديمة التى اقتلعتها الكنيسة وطمست معالمها، إلا فيما يتصل بالآراء الفلسفية اليونانية والتشريعات الرومانية التى وافقت أغراض رجال الكنيسة، مما ترتب عليه تسويد العقل وتحكيمه فى جوانب الحياة المادية والروحية.[1]

وإيطاليا التى عاصرها "مكيافللى كانت مقسمة إلى خمس وحدات سياسية كبيرة نسبياً هى : مملكة نابولى فى الجنوب، ودوقية ميلان فى الشمال الغربى، وجمهورية البندقية فى الشمال الشرقى، وجمهورية فلورنس، والإمارة البابوية فى الوسط. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الدويلات المستقلة التى يحكمها أمراء يتصارعون معاً ويستعينون بالممالك الكبرى على قهر خصومهم، الأمر الذى

---

[1] انظر فيما تقدم: فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، من ص٣٢٩ إلى ص٣٣٨.

أخرى الإمبراطورية الألمانية وفرنسا وأسبانيا على التدخل فى الشئون الإيطالية سعياً لإيجاد مناطق نفوذ لها. وكانت البابوية تستعين - بالتحديد - بأسبانيا حفاظاً على أملاكها فى شبة الجزيرة الإيطالية، ولرفضها تركيز السلطة فى يد حاكم واحد.

هذا ولقد شب "مكيافللى" فى عهد الأمير المديتشى، الذى أُطلق عليه الفلورنسيون اسم لورنزو العظيم، والذى اعتبر عهده العصر الذهبى للنهضة الإيطالية، وإليه كان يرجع الفضل فى حفظ التوازن بين الوحدات السياسية الخمس الكبرى فى إيطاليا (إلى حد ما)، وتوفى لورنزو سنة ١٤٩٢، واضطر خلفه "بييرو" إلى الخروج منفياً بعد عامين على أثر تعرض المدينة لغزو من شارل الثامن ملك فرنسا، وظهر راهب يسمى "سافونا رولا" قام بإصلاح الجمهورية ونجح فى إقامة حكومة ثيوقراطية، مالبثت أن انهارت فأعدم الراهب سنة ١٤٩٨ (وبعد بضعة أشهر من ذلك اختير "مكيافللى" سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنس)، وحينما جاء الجيش الفرنسى من جديد (بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها مكيافللى فى منصبه) إلى فلورنس اضطر أهلها تحت ضغط الخوف والفزع إلى استدعاء آل مديتشى، وخرج مكيافللى من مدينته بدوره منفياً. ولقد ظهرت فى هذه الآونة عوامل جديدة عقدت من مشاكل إيطاليا، كما ضاعفت من تعاسة "مكيافللى" وشقائه، فقد بدأ "لوثر" إصلاحه الدينى، وأدت المنافسة بين الإمبراطور "شارل الخامس" الألمانى، والملك "فرانسوا الأول" الفرنسى للسيطرة على إيطاليا، إلى مالحق بروما من خراب ، وإلى طرد عائلة مديتشى من جديد من فلورنس.[1]

---

[1] راجع فيما تقدم بشأن ظروف إيطاليا التاريخية فى تلك الفترة:-
- G. Mosca, Op. cit., P.P. 103-108
- Linda Villari, The life and times of Niccolo Machiavelli, 1891.
وكذلك مقدمة ترجمة كتاب الأمير لـ: "Paul Sonnino"، مرجع سابق، ص٦ إلى ص١١.

وجملة القول هنا: أن هذا الواقع السياسى المضطرب قد أثر تأثيراً بالغاً على فكره "مكيافللى"، كما كان للواقع الاجتماعى أثر بالغ أيضاً على فكره وبصفة خاصة مانتج عنه من تسويد العقل وطرح تعاليم الكنيسة.

– تحليل نصوص كتاب "الأمير: Il principe" "لمكيافللى" :

ويتكون الكتاب من مقدمة، وستة وعشرين فصلاً، وفى مقدمة الكتاب أعلن "مكيافللى" أن كتابه هذا هدية منه إلى الأمير "لورنزو" (ابن بيارو دى مديتشى) حيث قال:-

"Desiderando io adunque offerirmi alla vostra Magnificenzia con qualche testimone della servitu' mia verso di quella, non ho trovato intra la mia suppellettile cosa quale io ablia piu' cara o tanto existimi, quanto la 'cognizione delle azioni delli uomini grandi imparata con una lunga esperienza delle cose moderne et una continua lezione delle antique".[1]

وتظهر هذه النصوص رغبة "مكيافللى" فى أن يقدم للأمير دليلاً متواضعاً على ولائه له، وأنه لم يجد فيما يملكه شيئاً يعتز به ويقدره سوى معرفته بالأعمال

---

[1] انظر :-

- Niccolo' Machiavelli, Il principe, presentazione di Fredi Chiappelli, Firenze, 1900, P. 11,12.

ولقد اعتمد الباحث على فهم نصوص كتاب الأمير "لمكيافللى" على التراجم الإنجليزية التالية:-

- N., Machiavelli, The prince, introduction, translation and notes by Paul Sonnino, Op. cit.
- N. Machiavelli, The prince, translated by Daniel Donno, Op. cit.
- N. Machiavelli. The prince, translated and edited by Angelo M. Codevilla, Boston university, 1997.

التى قام بها عظماء التاريخ، وهى معرفة حصل عليها من خلال تجربة شخصية طويلة وخبرة بالأحداث التى عاصرها، ودراسة لأحداث الماضى.

ولقد تناول "مكيافللى" فى كتابه هذا من الفصل الأول وحتى الفصل الرابع عشر أنواع الإمارات(من إمارات جمهورية وملكية ومختلطة وكنسية..)، وكيفية كسب تلك الإمارات ووسائل المحافظة عليها وأسباب فقدها. غير أن أهم ما عرض له "مكيافللى" فى مؤلفه "الأمير" هو ما يتصل "بفن السياسة" ، وهو موضوع الفصول من الخامس عشر إلى السادس والعشرين - أى إلى نهاية الكتاب - حيث سعى إلى تقديم قواعد ينبغى على الأمير أن يتبعها إزاء رعيته وقبل أصدقائه وأعدائه من الأمراء والملوك.

ففى الفصل الخامس عشر ، والمعنون بالأمور التى يستحق عليها الأمراء المديح أو اللوم، قال "مكيافللى" فى بدايته:-

"Resta ora a vedere quali debbano essere e'modi e governi di uno principe con sudditi o con li amici". (١)

ويوضح هذا النص أن "مكيافللى سيبدأ من ذلك الفصل (الخامس عشر) فى بيان الطرق والقواعد التى يجب على الأمير أن يسلكها إزاء رعاياه وأصدقائه كما قال :-

"Onde e' necessario a uno principe, volendosi mantenere, imparare a potere essere non buono, et usarlo e non usare secondo la necessita' ".(٢)

ويبين هذا النص قاعدة من القواعد التى يجب على الأمير أن يسلكها للحفاظ على إمارته، حيث نصحه "مكيافللى" أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة

---

(١) انظر: - Niccolo' Machiavelli, Il Principe, Op. cit., P. 92.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

والخير (أو إن شئنا عن الأخلاق) ويتعلم كيف يستخدم هـــذه الأخـــلاق أولا يستخدمها طبقاً لضرورات الأحداث التي يواجهها. ومعنى ذلك أن الأمير الـذى يريد البقاء فى حكمه عليه ألا يكون طيباً وخيراً على الدوام، وإنما ينبغى عليـه أن يجيد كيف يكون طيباً وخيراً وكيف لايكون كذلك وفق ماتقتضيه الضرورة.

وفى نفس الفصل نصح "مكيافللى" الأمير فى سبيل المحافظة كذلك علـــى إمارته بقوله:

"Et io so che ciascuno confessera' che sarebbe laudabilissima cosa uno principe trovarsi di tutte le soprascritte qualita', quelle che sono tenute buone : ma, perche' non si passono avere, ne' interamente asservare, per le condizioni umane che non lo consentono, li e' necessario essere tanto prudente, che sappia fuggire l'infamia di quelle che li torrebbano lo stato, e da quelle che non gnene tolgano guardarsi, se elli e' possibile, ma, non possendo, vi si puo' con meno respetto lasciare andore. Et ancora non si curi di incorrere nella fama di quelli vizii, sanza quali possa difficilmente salvare lo stato". [1]

وتظهر هذه النصوص نصيحة "مكيافللى" للأمير بأن يتحلى بالفضائل (التى ذكرها من قبل فى نصوص أخرى كأن يكون كريماً محسناً وفياً بالعهد شجاعاً..) غير أن ذلك الأمر - كما اعتقد "مكيافللى" - صعب التحقيق بعيد المنال لايتفق وحال البشرية، وتبعاً لذلك رأى أنه من الضرورى أن يكتفى الأمير بأن يعــرف كيف يتجنب التصرفات الخسيسة التى تفقده حكمه، و ألايكترث بأى لـــوم يقع عليه إذا كان من الضروى ألا يتخلى عن فعل هـــذه الرذائـــل إذا كـــانت ضرورية للحفاظ على إمارته.

---

[1] المرجع السابق ، ص٩٣.

وفى الفصل السادس عشر والمعنون "بالكرم والبخل" نصــح "مكيــافللى" الأمير بقوله :-

"E pero', a volersi mantenere infra li uomini el nome del liberale, e' necessario non lasciare indrieto alcuna qualita' di suntuosita'; talmente che, sempre, uno principe cosi fatto consumera' in simili opere tute le sua faculta'; e sara' necessitato alla fine, se si vorra' mantenere el nome del liberale, gravare e'populi estraordinariamente et essere fiscale e fare tutte quelle cose chi si possono fare per avere donari. Il che comincera' a farlo odioso con sudditi, e poco stimar da nessuno, diventando povero; in modo che, con questa sua liberalita' avendo offeso li assai e premiato e'pochi".(1)

وتوضح هذه النصوص نصيحة "مكيافللى" للأمير الذى يرغب فى اشتهاره بين رعيته بالكرم أن يعرف كيف يكون كريماً، فالأمير الذى من طبيعته الكــرم ولايعرف كيف يستخدم هذا الكرم فى الحفاظ على حكمه سيســتنزف جميــع إمكانياته لكى يحافظ على هذا الكرم (الزائد) وسيجد نفسه مضطراً فى النهايــة لفرض ضرائب ثقيلة على شعبه فيصبح مبتزاً له، حيث سيقدم على أى عمــل ليحصل به على المال، وإذا ما انحدر الأمير إلى مثل هذه الحالةفسيكرهه شــعبه، ويفقد تقديره له تبعاً لفقره، وسيفتح الباب بكرمه - الذى أدى به إلى كســب قلة من الناس إلى أن يخلق روح المقاومة لدى الكثرة. ولتوضيح ذلــك، قــدم "مكيافللى" أمثلة واقعية بقولة:-

"Papa Lulio II, come si fu servito del nome del liberale per aggiugnere al papato, non penso' poi a mantenerselo, per potere fare

---

(1) المرجع السابق، ص٩٤، وص٩٥.

guerra la re di Francia : et ha fatto tante guerre sanza porre uno dazio estraordinario a'sua, perche, alle superflue spese ha sumministrato la lunga parsimonia sua. El re di Spagna presente, se fussi tenuto liberale, non arebbe fatto ne' vinto tante imprese".[1]

وتشير هذه النصوص إلى نصيحة "مكيافللى" للأمير بضرورة أن يعرف كيف يستخدم الكرم والبخل فى الحفاظ على حكمه، فأوضح أنه على الرغم من أن البابا "يوليوس الثانى" قد عُرف عنه الكرم واستخدم ذلك فى الوصول إلى البابوية، إلا أنه بعد ذلك تخلى عن الكرم لكى يوفر مايلزم من وسائل تمكنه من شن الحروب. كما قام ملك فرنسا (آنذاك) بشن عديد من حروب دون فرض مزيد من الضرائب على شعبه لأنه غطى بتقتيره من قبل كل نفقات هذه الحروب. وملك أسبانيا (آنذاك) لو كان كريماً لما تمكن من النجاح فى عدد كبير من المشروعات.

وفى الفصل السابع عشر والمعنون "باللين والقسوة، وهل من الخير أن تكون محبوباً أم مهاباً" نصح "مكيافللى" الأمير بقوله:-

".. Dico che ciascuno principe debbe desiderare di esser tenuto pietoso e non crudele: non di manco debbe avvertire di non usare male questa pieta'. E ra tenuto Cesare Borgia crudele; non di manco, quella sua crudelta' aveva racconcia la Romagna, unitola, ridottola in pace et in fede".[2]

وتبين هذه النصوص أن الأمير - كما رأى "مكيافللى"،- إذا كان ينبغى عليه أن يكون رحيماً فإنه يتحتم عليه أيضاً أن يعرف كيف يستعمل القسوة، ذلك بأن اللين قد يؤدى إلى الفوضى، وأن القسوة تقيم النظام وتحقق الوحدة ،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق ، ص٩٧.

وكثيراً ماتقضى على الفوضى، كما حذر "مكيافللى" الأمير من إساءة استعمال الرحمة مع رعاياه، وذكر أن قيصر "بورجيا" كان من القساة على شعبه ولكن قسوته جاءت بالنظام والوحدة إلى بلده وفرضت عليها الاستقرار والولاء.

وفى نفس الفصل تساءل "مكيافللى" عما إذا كان من الأفضل أن يكون الأمير محبوباً أم مهاباً من قبل شعبه حيث قال :-

"Nasce da questo una disputa : s'elli e' meglio essere amato che temuto, O e converso. Respondesi, che si varrebbe essere l'uno e l'a'ltro; ma, perche' elli e' difficile accozzarli insieme, e'molto piu' sicuro essere temuto che amato, quando si abbia a mancare dell'uno de' dua... Ma, sopra a tutto, astenersi dalla roba d'altri; perche' li uomini sdimenticono piu' presto la morte del padre che la perdita del patrimonio.. E che sia vero che l'altre sua virtu' non sorebbano bastate, si puo' considerare in Scipione, rarissimo non solamente ne'tempi sua, ma in tutta la memaria delle cose che si sanno, dal quale li eserciti sua in Ispagna si rebellorono. I e che non nacque da altro, che dalla troppa sua pieta', la quale aveve a' sua soldati piu licenzia che alla disciplina militore non si conveniva".[1]

وتظهر هذه النصوص الإجابة على ذلك التساؤل الذى طرحه "مكيافللى" عما إذا كان من الأفضل أن يخاف الناس الأمير بدلاً من أن يحبوه، حيث رأى "مكيافللى" أنه من الواجب أن يخاف الناس الأمير وأن يحبوه، ولكن لما كان من العسير الجمع بين الخوف والحب فإنه من الأفضل أن يخافوه على أن يحبوه... وعلّل "مكيافللى" ذلك بقوله لأن الناس لايترددون فى الإساءة إلى الأمير الذى

---

[1] المرجع السابق، ص٩٨، وص٩٩، وص١٠٠، وص١٠١.

يجعل نفسه محبوباً، بقدر ترددهم فى الإساءة إلى من يخافونه... وضرب "مكيافللى" على ذلك مثلاً "لشيبيو" الذى ثارت عليه جيوشه فى أسبانيا بسبب إغراقه فى اللين مع جنوده الذين سمح لهم بأشياء لا تتفق والنظام العسكرى.

وفى الفص الثامن عشر، والمعنون "بكيف يتوجب على الأمير أن يحافظ علىعهوده" قدم "مكيافللى" مجموعة قواعد للأمير فى علاقاته مع الأمراء الآخرين، حيث قال:-

"Dovete a dunque sapere come sono dua generazione di combattere: l'uno con le leggi, l'altro con la forza : quel primo e' proprio dello uomo, quel secondo delle bestie : ma, perche' el primo malte volte non basta, conviene ricorrere al secondo. Per tanto, a uno principe e' necessario sapere bene usare la bastia e lo uomo... Sendo adunque uno principe necessitato sapere bene usore la bestia, debbe di quelle pigliare la golpe et il lione; perche' il lione non si difende da' lacci, la golpe non si difende da' lupi. Bisogna adunque essere golpe a conoscere e'lacci, e lione a sligottire e'lupi. Coloro che stanno semplicemente in sul lione, non se ne intendano. Non puo', per tanto, uno signore prudente ne' debbe osservare la fede, quando tale osservanzia li torni e che sono spente le cagioni che la feciono promettere. E, se li uomini fussino tutti buoni, questo precetto non sarebbe buono; ma, perche' sono tristi e non la osservareb bano a te, tu ancora non l'hai ad osservare a loro. Ne' mai a uno principe mancorono cagioni legittime di colorare la inosservanzia".[1]

---

(1) المرجع السابق ، ص١٠٢، ص١٠٣.

ويستفاد من هذه النصوص أنه بصدد علاقات الأمير تجاه غيره من الأمراء عليه كما رأى "مكيافللى" أن يجمع فى تصرفاته معهم بين أساليب الإنسان والحيوان، حيث قال للأمير: عليك أن تدرك أن ثمة سبيلين للصراع، أحدهما بواسطة القانون، والثانى بواسطة القوة، وبينما يلجأ البشر إلى السبيل الأول يلجأ الحيوانات إلى السبيل الثانى، لكن السبيل الأول غير كاف عادة لتحقيق الأهداف المرجوة، ولذلك فعلى الأمير أن يلجأ إلى السبيل الثانى، بل إنه من الضرورى أن يعرف الأمير كيف يستخدم الطريقتين معاً... ورأى "مكيافللى" أنه إذا التجأ الأمير إلى وسيلة الحيوان عليه أن يتخذ من بين الحيوانات: الثعلب والأسد كمثل يحتذى به فى هذا الشأن، فعليه أن يعمل على أن يكون ثعلباً وأسداً فى آن واحد. ذلك أنه إذا لم يكن الأمير إلا أسداً ما استطاع أن يتبين الشباك التى تنصب له، وأنه إذا لم يكن إلا ثعلباً لعجز عن مواجهة الذئاب، ومن ثم فإن الأمر يقتضى أن يكون الأمير أسداً وثعلباً فى ذات الوقت. وفيما يتعلق بالوعود والتعهدات التى يعطيها الأمير للآخرين عليه أن يكون ثعلباً فلا يراعى الضمير إذا كان من شأن ذلك الإضرار به، ويبرر "مكيافللى" ذلك بأن هذا الأسلوب يصبح غير طيب لو أن الناس جميعاً كانوا خيرين (لكنهم – عنده – غير ذلك). فالناس فى تصور "مكيافللى" سيئون لايراعون وعودهم للأمير، ومن ثم فهو أيضاً فى حل من الوفاء بوعده تجاههم. ولقد اكتفى "مكيافللى" هنا بإعطاء مثال معاصر له دلل به على ذلك، حيث قال:–

"Io non voglio delli freschi tacerne uno. Alessandro VI non fece mai altro, non penso' mai ad altro che ad ingannare uomini, e sempre trovo' subietto da paterlo fare. E non fu mai uomo che avessi maggiore efficacia in asseverare, e con maggiori giuramenti affermassi una cosa, che l'osservassi meno; non di meno, sempre li

succederono l'inganni ad votum, perche' conosceva bene questa parte del mondo".(1)

وتشير هذه النصوص إلى مافعله البابا ألكسندر السادس الذى لم يقم بأى عمل سوى خداع الآخرين، بل و لم يفكر فى شئ سوى ذلك، ونظراً لتفوقه ومهارته فى تقديم الوعود كان دائماً يجد الفرصة لنجاح خداعه فى الوقت الذى لم يكن هناك من هو أقل منه تمسكاً بهذه الوعود.

هذا وفى الفصول من التاسع عشر إلى الرابع والعشرين، نصح "مكيافللى" الأمير عدة نصائح منها أن يتجنب كل ما يؤدى إلى تعرضه للاحتقار والكراهية من جانب شعبه، وأن يخلق بمكره عداوات فى الداخل والخارج متى اتيحت له الفرصة لذلك، حتى إذا ماقهر أعداءه ضاعف من مكانته وعظمته، ونصحه كذلك أن يعمل لاكتساب الشهرة، وأن يحسن اختيار وزرائه وذلك عن طريق اختيار الوزير الذى يستهدف فى جميع أعماله مصالحه (أى مصالح الأمير) وليس مصالح ذلك الوزير الخاصة، كما نصحه أيضاً بالابتعاد عن المنافقين، وأن يعمل للوقاية من النفاق من ثنايا جعل الجميع يدركون أنهم لن يسيئوا إليه إذا ماواجهوه بالحقائق، وأن يقبل الأمير النصيحة دائماً.

وفى الفصل الخامس والعشرين، والمعنون بـ "أثر القدر فى الأمور الإنسانية وطرق مقاومته" عرض "مكيافللى" رأيه فى أحكام القدر، حيث قال :-

"E'non mi e'incognito come molti hanno avuto et hanno opinione, che le cose del mondo sieno in modo governate dalla fortuna e da Dio, che li uomini con la prudenzia loro non posaino correggerle, anzi non vi abbino remedio alcuno... I udico patere esser vero che la fortuna sia arbitre della meta' delle azioni nostre,

---

(1) المرجع السابق، ص١٠٤.

ma che ancora lei ne lasci governare l'altra meta', opresso, a noi".[١]

وتوضح هذه النصوص رأى "مكيافللى" فى أحكام القدر، حيث يـــرى أن كثيرين يعتقدون بأن الأحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر، ويتحكمان فيها الله، وأنه ليس للبشر (من باب الحكمة والتبصر) أن يغيروها أو يبدلوها، بل عليهم الاستسلام الكامل لها دون محاولة فعل أى شئ... أما هو فليس فى وسعه أن يتجاهل الإرادة الإنسانية تماماً، ومن رأيه أن يعزو الإنسان إلى القدر التحكم فى نصف عمله لأن القدر ترك له النصف الآخر أو ما يقرب ليتحكم فيه بنفسه.

وفى الفصل الأخير من كتابه "الأمير" (الفصل السادس والعشرين) والمعنون بـــ "الدعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة" دعا الأمير "لورنزو"، الذى أهدى إليه الكتاب، إلى تحرير إيطاليا من الغزاة البرابرة (ويقصد بهم فرنسا وألمانيا وأسبانيا آنذاك).

ويجدر الإشارة هنا إلى أن أفكار "مكيافللى" لم تقتصر فقط على كتاب "الأميرة"، بل امتدت إلى مطارحاته[*] بصفة خاصة (السابق الإشارة إليها)، ففى هذه المطارحات بحث "مكيافللى" فى توسع الجمهورية الرومانية، كما ظهر فيها تجاهله للدين وفصله عن السياسة، وكذلك فكرة القوة والحيلة كأساس لسياسات الحكومات. ومماجاء من أراء فى هذه المطارحات موقف "مكيافللى" من الكنيسة (كنيسة روما آنذاك) حيث قال :-

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٧، ص١٣٨.

(*) انظر :-

- Niccolo' Machiavelli, Discorsi - sopra la prima deca di Tito Liuio, Milano, 1919.

واعتمد الباحث فى فهم بعض النصوص التى أوردها هنا على التراجم التالية لمطارحات "مكيافللى":-

- The discourses by Niccolo' Machiavelli, translated by Max Lerner, New York, 1940.

- ...., translated by Daniel Donno, New york, 1981.

"Abbiamo dunque con la chiesa e coi preti nio Italiani questo primo obbligo, d'essere diventati senza religione e cattivi; ma ne abbiamo ancora un maggiore, il quale e' cagione della rovina nostro. Questo e'che la chiesa ha tenuto e tiene questa nostra provincia divisa. E veramente alcuna provincia non fu mai unita o felice, se la non viene tutta all' ubbidienza d'una repubblica o d'uno principe, come e'avvenuto alla Francia ed alla Spagna. E la cagione che la Italia non sia in quel medesmo termine, ne' abbia anche ella o una repabblica o uno principe che la governi, e'solamente la chiesa: perche' avendovi abitato e tenuto imperio temporale, non e' stata si potente, ne' di tal virtu' che l' abbia potuto occupare il restante d' Italia, e farsene principe; e non e' stata, dall'altra parte si debile, che, per paura di non perdere il dominio delle cose temporali, la non abbia potuto convocare un potente che la difenda contro a quello che in Italia fosse diventato troppo potente".(1)

وتدلل هذه النصوص على موقف "مكيافللي" من الكنيسة الإيطالية، حيث هاجمها بقوله: نحن الإيطاليين ندين لكنيسة روما وقسيسيها بما وصلنا إليه من حالة الارتداد عن الدين وفساد الخلق، بل وبما هو أعظم من ذلك الأنهيار(٢). ذلك أن الكنيسة عملت ولازالت تعمل (آنذاك) على تقسيم إيطاليا التى لايمكن لها أن تتحد، ولا أن تمنأ إلا إذا خضعت لحكومة واحدة سواءً أكانت ملكية أو جمهورية كما هو الحال فى فرنسا وأسبانيا، لكن إيطاليا لم تكن أيا منهما

---

(١) انظر:-
- N. Machiavelli, Discorsi, OP., cit., P. 64.

(٢) حيث شاهد "مكيافللى" انهيار وطنه عام ١٥١٢.

وسبب ذلك كله هو الكنيسة التى لم تكن لديها القدرة على فرض سيادتها على جميع أنحاء إيطاليا، كما لم تسمح لغيرها القيام بتلك المهمة، وإذن هى المسئولة عن تفتيت إيطاليا وعدم وحدتها تحت حكومة واحدة، حيث سعت لتمزيقها بين عديد من إمارات وجعلتها فريسة سهلة المنال لا للبرابرة الأقوياء فحسب بل ولأى أمير يرغب فى النيل منها فى سعيه لزيادة قوته.

♦ **رابعاً : مقابلة بين كل من "مكيافللى"، و"ابن ظفر":**

وإذ انتهى الباحث من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر" العربى الصقلى بالتفصيل اللاحق، وكتاب "الأمير" "لمكيافللى" (على سبيل الاستشهاد)، فإنه واضح أن كليهما سعى إلى تقديم قواعد عمل لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته (فى الداخل وفى الخارج) أكثر قوة وفاعلية، ومن ثم فقد سعى كلاهما لتقديم قواعد لفن أصول الحكم تكفل له أقصى درجات الفاعلية. وفيما يلى يعرض الباحث لنقاط التشابه والخلاف بينهما:

– أولاً : نقاط التشابه :

أولها : أن كليهما قدم كتابه هدية إلى أمير، "فابن ظفر" قدم كتابه "سلوان المطاع" هدية إلى قائد صقلية وزعيم المسلمين بها "ابن حمود" آملاً بذلك أن يسعى هذا الأمير القرشى إلى توحيد المسلمين بالجزيرة والعمل على عودتها إلى حوزة المسلمين من أيدى النورمان (على نحو ماقام به الموحدون من استرداد المهدية من أيديهم فى نفس العام الذى ألّف فيه "ابن ظفر" كتابه هذا). "ومكيافللى" كذلك قدم كتابه "الأمير" هدية إلى الأمير "لورنزو" آملاً أن يقوم هذا الأمير بتوحيد إيطاليا بعد تحريرها من يد الغزاة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصير هذين الكتابين كان الإخفاق فى تحقيق هدفهما فى حياة كل من "ابن ظفر" و "مكيافللى".

ثانيها : إرساء قواعد عمل ووسائل لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته أكثر قوة وفاعلية: من قوة وحيلة، والاستناد إلى جيش قوى، وحسم الأمور، والحزم فى انتهاز الفرص تحقيقاً للأهداف، وعدم استخدام اللين الزائد مع المحكومين.

ثالثها : النزعة الواقعية فى التحليل، فالمعرفة لديهما مستمدة من التجربة العملية، والقواعد التى قدمت من جانبهما فى فن أصول الحكم جاءت مستندة إلى أحداث تاريخية.

رابعها : النسبية وعدم تقبل أى حل من جانبهما فى العملية السياسية على أنه نهائى، ففى قاعدة "التفويض" التى قدمها "ابن ظفر" يرى أن التفويض لأحكام القدر لايعنى الاستسلام والتواكل بل يعنى الثبات والمثابرة والعمل المستمر للخروج من الموقف بأقل الخسائر الممكنة، وفى هذا الإطار يذهب "مكيافللى" - كما تقدم - إلى القول بعدم الاستسلام الكامل للأحداث دون محاولة فعل أى شئ حيث عزا إلى القدر التحكم فى نصف العمل، وأن القدر قد ترك للإنسان النصف الآخر أو مايقرب ليتحكم فيه بنفسه.

خامسها : الإشارة إلى مفهوم القوة فى الدراسات السياسية، فى تناولهما لاستخدام وسيلتى القوة والحيلة من جانب الأمير فى سياسته الخارجية ضماناً لقوته.

- ثانياً : نقاط التباين :

أولها : مسألة فصل الأخلاق عن السياسة، حيث نصح "مكيافللى" الأمير بأنه لكى يبقى فى حكمه فعليه أن يعرف كيف يجيد استخدام الرذائل وألا يكترث بأى لوم يقع عليه من جراء ذلك عملاً بمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، ولأن التحلى بالفضائل أمر لايتفق وحال البشرية. أما "ابن ظفر" فيذهب إلى النقيض مما نصح به "مكيافللى" الأمير من دعوته له بفصل الأخلاق عن السياسة، بل ربط بينها ونصح الأمير فى حالة تمرد رعيته بكف الأذى وبسط العدل والإحسان وتأمين السبل وإجارة المستجير والأخذ بالفضل والعفو. من هنا كان الأمير الأفضل عند "ابن ظفر" هو الذى يربط سياسته بالأخلاق الفضلى، أما

الأمير الأفضل عند "مكيافللى" فهو الذى يطرح الأخلاق جانباً فى سياساته، ولذلك كان "مكيافللى" يبدى إعجابه بالبابا ألكسندر السادس وهو الكاردينال "روديجو بورجيا" الذى دأب على استخدام السم فى مواجهة خصومه، والذى لم يفعل شيئاً سوى خداع الناس ، ولم يترك فرصة لخداعهم إلا واستغلها، وكان مدبراً على إيهام سامعية بصدقه وإخلاصه، كما كان "سيزار بورجيا" (ابن البابا الكسندر السادس) بطل "مكيافللى" الأثير، وقد عاصره، وألهمته سيرته تأليف كتابه "الأمير"، و"سيزار بورجيا" هذا هو الذى قتل أخاه الأكبر واغتال زوج أخته ومئات غيرهما تثبيتاً لسلطانه.[1]

ثانيها : تصور كل منهما للدين، فعلى حين يرى "ابن ظفر" الفقيه والمفسر أن الدين عماد الحياة والسياسة معاً حيث جاءت نصائحه للأمير متفقة مع الشرع، يرى "مكيافللى" أن الدين (المسيحى) يدعو إلى الانكسار واحتقار الدنيويات، وذلك فى مواجهة ديانة الإغريق الوثنية التى تقدس الأبطال وتؤله رجال الفكر والفن العظام، كما أن الدين – عنده – ليس إلا أداة من أدوات الحكم يقود بها الأمير شعبه، ولو أن الأمير كان قوياً وكافراً لكان أفضل من أن يكون مؤمناً ضعيفاً.[2]

ثالثها : نظرة كل منها إلى الطبيعة البشرية "فمكيافللى" سيئ الظن بالطبيعة البشرية على طول كتابه، وليس هذا بغريب إذ عاصر "مكيافللى" "سيزار بورجيا" وغيره من سفلة إيطاليا، ومن رجال الدين المنحرفين، فالأمير العاقل – فى تصوره هو الذى يقيم سياسته على افتراض أن الإنسان شرير بطبعه. وعلى النقيض من ذلك يأتى تصور "ابن ظفر" للطبيعة البشرية حيث لم يكن سيئ الظن بها فى كتابه "سلوان المطاع"، بل وفى كتاب آخر له بعنوان "أنباء نجباء الأبناء" (السابق الإشارة إليه) راح يبرز أفضل ما فى الطبيعة البشرية.

---

[1] راجع فى هذا الصدد، فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، ص٣٤٣، وص٣٤٤.

[2] راجع بصدد تصور "مكيافللى" للدين، المطارحات، مرجع سابق، ص٦٣، وص٦٤.

رابعها : التشاؤم، وهو الطابع الغالب على تفكير "مكيافللى" . حيث يرى أن الإنسان غير قابل للتغيير وعاجز عن بلوغ الكمال، على حين يؤمن "ابن ظفر" بأن الإنسان مهيأ بطبعه لبلوغ الكمال وأن بوسعه الارتقاء بذاته بفضل تحرير طاقته الذهنية والنهوض بها، حيث طالب الأمير فى حالة وقوع الضرر بعدم التقاعس وإعمال الحيلة ما استطاع، وحذّره من اليأس والسآمة (الملل) وهو فى طريقه لتحقيق هدفه. ولاشك أن التشاؤم الذى غلب على تفكير "مكيافللى" قد انعكس على نصائحه للأمير حيث رأى أنه ليس للأمير متسع من الوقت لممارسة المعنويات وأن هناك فجوة واسعة بين الواقع العملى والمثاليات.[1]

خامسها : أن فكر "مكيافللى" قد جاء تمجيداً للحكم الشمولى وتقديساً لمبدأ أنانية الحكام فى تعبئة الجماهير لخدمة غايتهم الطاغية فى التوسع وإحاطتهم بهالات المجد والفخار، فينتهى الأمر بهم إلى جنون العظمة، وتجر شهوتهم التى لاحد لها الكوارث على قومهم بل وعلى العالم أجمع (ولقد استهوت أفكار "مكيافللى" تلك كلاً من نابليون وهتلر وموسولينى..). أما "ابن ظفر" فيستشف من كتابه أنه غير ميال إلى الحكم الشمولى، بل هو كثير النقد للملوك والأمراء الذين ينفردون باتخاذ القرار وحدهم دون استشارة وزرائهم أو ذوى الخبرة والتجربة، وانتقد كذلك القساة، من الملوك والأمراء، على رعيتهم حيث غلّب استخدام الرحمة مع الرعية ولكن بلا لين زائد، أما "مكيافللى" فقد رأى أنه من الأفضل أن يخاف الرعية الأمير من أن يحبوه، وأباح القسوة والقتل والغش أو أية وسيلة طالما أن ذلك يحافظ على الإمارة، وبصفة خاصة أثناء نشأة الإمارة (أى عند إحلال نظام جديد محل نظام قديم)، وكل ذلك على أساس أن المنفعة - عنده - هى أساس العلاقات الإنسانية، وأن الأمير الأفضل هو الذى يحقق أقصى منفعة ممكنة وبأية وسيلة.[2]

---

[1] راجع بصدد تصور "مكيافللى" للطبيعة البشرية، وبصدد غلبة التشاؤم على تفكيره: فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، ص٣٤٥، وص٣٤٨، وص٣٤٩

[2] المرجع السابق ، ص٣٤٦. وانظر كذلك بصدد مكيافللى والحكم الشمولى:-

- Raymond Aron, Machiavel et les tyrannies modernes, Fallois, Paris, 1993.

خاتمـــــة

وواضح من كل ماتقدم : من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابـن ظفر" بالتفصيل المتقدم، ومن تحليل نصوص كتاب "الأمير" "لمكيافللى" (علـــى سبيل الاستشهاد)، ومن مقابلة كل منهما من ثنايا نقاط التشابه والخــــلاف - واضح سبق "ابن ظفر" العربى الصقلى فى تصوير قواعد فن أصول الحكم بحـوالى أربعة قرون، حيث نبه إلى وسائل وأدوات لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته أكـثر قوة وفاعلية، حال استخدام وسيلتى القوة والحيلة (المكيـــدة) - وعلـى نحـو تسميتهما المعاصرة الإستراتيجية والدبلوماسية - فى سياساته (الخارجيــــة) إزاء الأمراء الآخرين، وحال استخدام وسيلة اللين فى سياساته (الداخلية) إزاء الرعية، لكن لا لين زائد وإلا أدى ذلك إلى فساد الرعية وهكذا.

وواضح كذلك نزعة "ابن ظفر" الواقعية فى تصوير قواعد فن السياســـــة، باستناده إلى أمثلة تاريخية تدلل على صحة تلك القواعد، حيث نهـــج فى ذلـــك منهجاً اختبارياً (إستقرائياً)، وهو سابق على "مكيافللى" فى هذا الصــــــدد، إلى جانب سبقه له فى الإشارة إلى مفهوم "القوة" فى الدراسات السياسية.

من هنا يعتبر "ابن ظفر" العربى الصقلى هوالمؤسس الحقيقى لفن السياســـة - بمدلوله المعاصر - على مستوى الثقافات الإنسانية قاطبة، وليس "مكيــــافللى" كما يدعى الغرب ذلك. بل وربما تأثر "مكيافللى" "بابن ظفـــر" كغـيره مـــن الإيطاليين (حال دانتى الذى تأثر فى أفكاره عن الآخرة بالمسلمين..) الذين تأثروا بالتراث العربى والإسلامى، حيث كانت صقلية هى الجسر الذى نُقلت الثقافـــة العربية والإسلامية عبره إلى إيطاليا وأوربا الوسطى فى وقت كانت فيـــه أوربـــا كلها تعيش عصور ظلامها وتخلفها، وخاصة وأن النورمــــان (ومـــن بعدهـــم الإمبراطورية الجرمانية) كانوا حكام صقلية وجنوب إيطاليا فى ذات الوقت، هـذا إلى جانب ترديد "مكيافللى" لأفكار جاء بها "ابن ظفر" حال استخدام وســـيلتى القوة والحيلة، وعدم استخدام اللين الزائد مع الرعية، والاستعانة بالأمثلة التاريخية

الواقعية فى التدليل على صحة قواعد العمل فى مجال السياسة، والنسبية فى عدم تقبل أى حل نهائى للموقف، وإلى حد ما رأيه فى التصرف مع أحكام القدر، وهكذا.

ولقد ظهرت جدارة "ابن ظفر" ومهارته فى تصديه لفن السياسة، بتصوير قواعد فن أصول الحكم بصفة عامة، وبإعمال الحيل بصفة خاصة. ولم يبق بعد ذلك "لمكيافللى" سوى فكرته عن فصل السياسة عن الأخلاق (والدين)، ومبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" كأساس لفن الوصولية، ونظرته التشاؤمية للإنسان، وسوء ظنه بالطبيعة البشرية، وتمجيده للحكم الشمولى. فهو من خلال استخفافه بالدين والأخلاق، وأدبه المكشوف، وفرديته المتطرفة، وماديته السافرة، يعد وبحق مرآة لعصره، فهو الابن البار لعصر النهضة الذى كان من سماته الإعراض عن الدين وإيثار الجوانب العملية، ونبذ فكرة وجود نظام ربانى للإنسان والكون.

انتهى بحمد الله .

المضاميـن

الصفحـة